الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد التاسع عشر - السنة العاشرة
ذو الحجة ١٤١١ هـ - يوليو ١٩٩١م

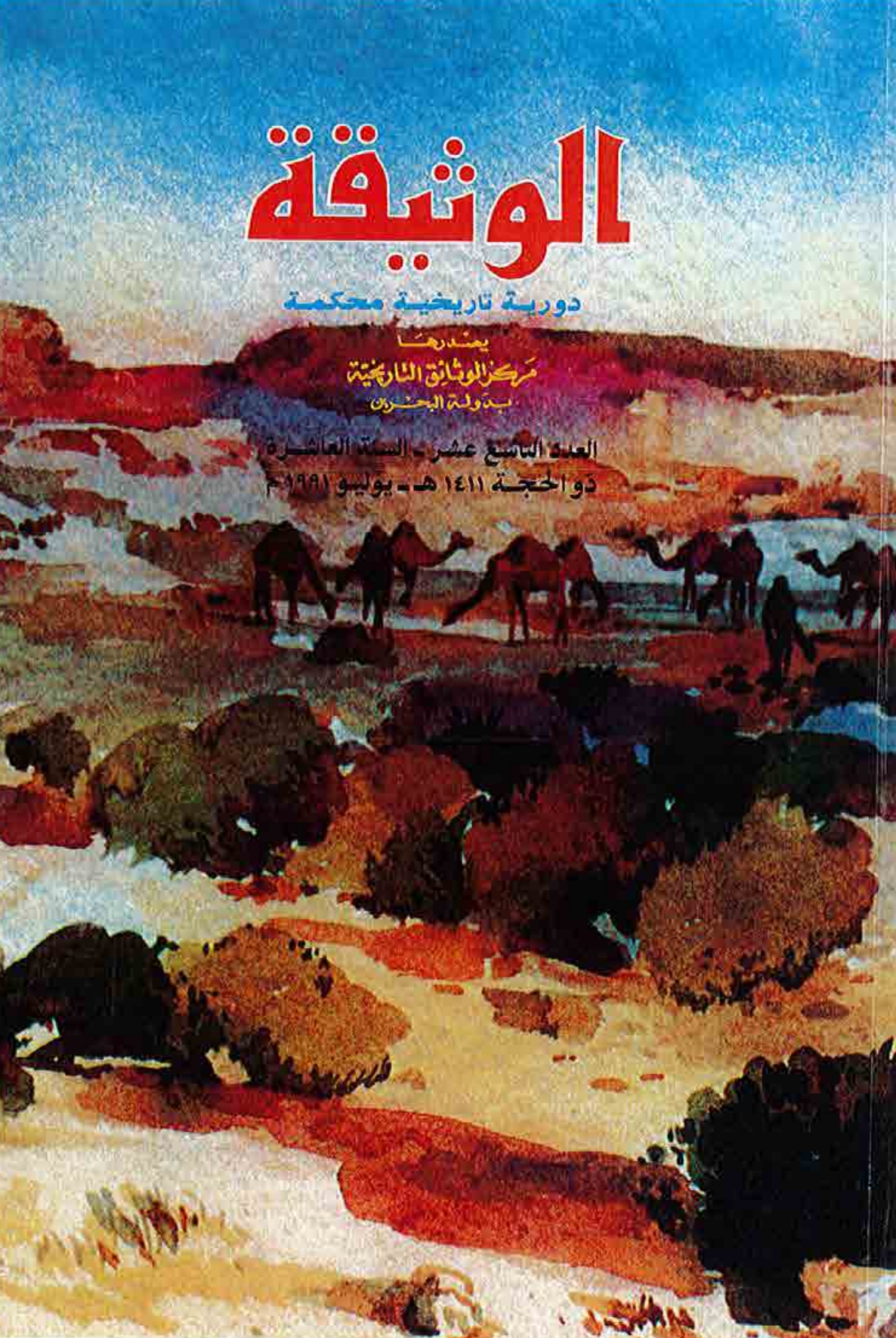

عرب الصحراء

٢

بدأنا في العدد الماضي نشر الجزء الأول من كتاب عرب الصحراء تأليف الكاتب هارولد ديكسون وترجمة الاديب حمد السعيدان وهي الترجمة التي تنشر لأول مرة باللغة العربية ، وتأتي اهمية الكتاب في أنه رصد دقيق وكامل لحياة البادية العربية بقلم كاتب عاش سنوات طويلة في قلب هذه البادية ، وحرص خلال معايشته للناس وللاحداث ان يسجل كل مايراه بدقه متناهية ، وننشر في هذا العدد الجزء الثاني من هذا الكتاب آملين ان نواصل في الاعداد القادمة نشر بقية الاجزاء لما لها من فائدة كبيرة للباحثين في شئون البادية العربية .

الوثيقة

تأليف : هارولد ديكسون

ترجمة : حمد السعيدان

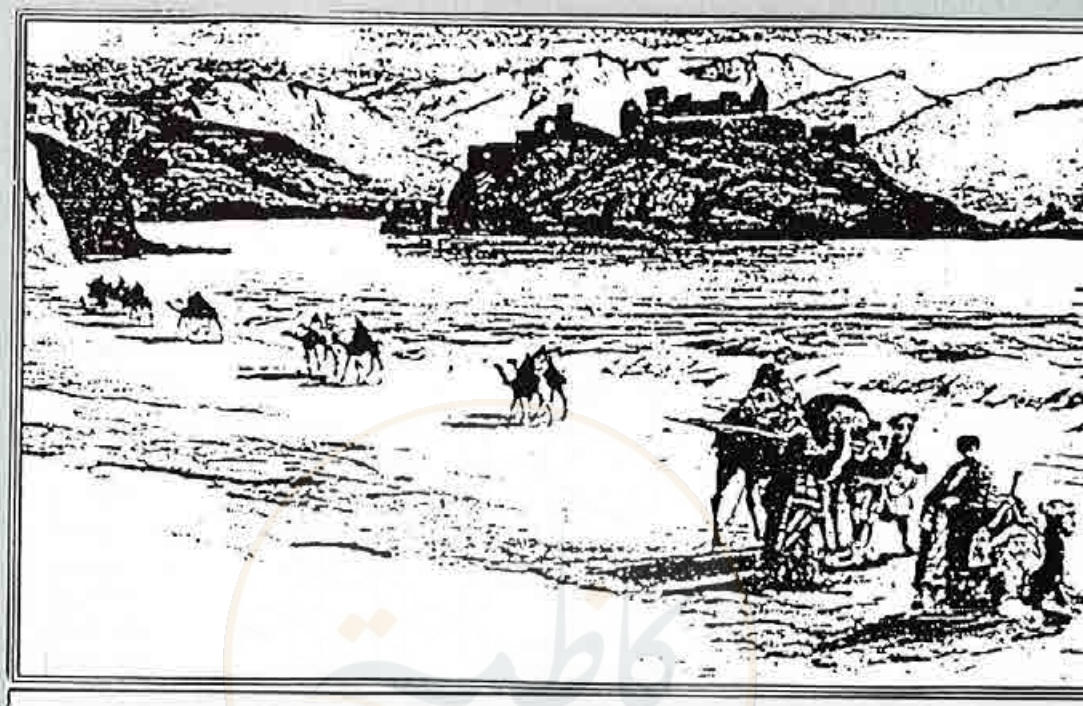

قبائل الكويت ونجد

(العرب) : موضوع هذا الكتاب الذين بدأت بتصوير انماط حياتهم في الجزء السابق هم البدو (عرب الصحراء) . الا ان الجدير بالذكر ان ليس كل عربي يشارك هؤلاء البدو حياة الترحال . ويقسم العرب انفسهم الى مجموعتين رئيسيتين : الحضر ، وهم الذين يعيشون في بيوت مستديمة من الطين او الحجر في القرى أو المدن .. والبدو ، وهم الذين يعيشون في الخيام في الصحراء ، ومن كلمة (بادية) والتي تعنى (الصحراء التي يسكنها البدو الرحل) اشتقت كلمة (بدوي) ، ولكن هذه التسمية لا يستعملها ولا يفهمها سكان الصحراء الذين يصنفون انفسهم (عرب) . وهناك مجموعة تأتي في الوسط بين المجموعتين السابقتين ويجب عدم الخلط بينها وبين البدو الاقحاح وهم (عريب دار) الذين يعيشون في خيام سوداء على حدود الصحراء الكبرى ، يخيمون بصورة شبه دائمة على مقربة من المدن ، وفي الشتاء والربيع ينتقلون الى داخل الصحراء على بعد يتراوح ما بين ثمانين ومئة ميل من بيوتهم ، وللبعض منهم ممتلكات صغيرة يرتبطون بها .

ويمكن اطلاق تسمية (بدو) على هؤلاء (العريب دار) اثناء مراحل انتقالهم الى حياة اكثر استقرارا ، ولبعضهم صلات قرابة مع بدو القبائل الاقحاح ويتزوجون باستمرار من أبناء عمومتهم في الصحراء ، وتتمثل ثروتهم بصورة رئيسية بقطعان الغنم التي عادة ما يملكون منها اكثر مما يملكونه من الجمال ، وهم محبون للسلام اذا لم يتعرضوا لعدوان ، عموما (عريب دار) محاربون اكفاء اذا استدعتهم الحاجة للدفاع عن شيخهم أو مدينتهم ، وينظر البدو اليهم نظرة اعتبار خاصة اذا كانوا من أصل عريق ولكن يعتبرونهم شبه مدنيين ، ويلعب العريب دار دور سماسرة بارعين في المبادلات التجارية التي تتعلق بالغنم والجمال ويفخرون دائما بأنهم مضيفون لاخوانهم البدو الذين يزورون المدينة .

وهناك قاطن آخر للصحراء ولا يجوز الخلط بينه وبين البدو الاقحاح أو أبناء عمومتهم العريب دار ، وهو راعي قبائل الصحراء ومهمته رعي غنم سكان المدن او غنم شيوخ القبائل الاثرياء ، ولما كانت الغنم ترعي في نطاق اضيق بكثير من تلك المناطق الواسعة التي تجول فيها جمال القبائل فقد برزت طبقة من الرعيان يتحركون في مناطقهم ولكنهم يرتبطون بالقبائل الرحل من اصحاب الجمال أو يشكلون جزءا منهم ، أو يمتلكون قطعانهم الخاصة ويجوبون بها مناطق مختلف القبائل في الصحراء الخارجية ، ويندرج رعيان القبائل هؤلاء تحت اسم الشواوى (مفرده شاوى) .

وتجدر الاشارة في هذا المضمار الى رعيان قبيلة العوازم ، ويرعى هؤلاء الى جانب قطعانهم من الغنم قطعان اخوانهم من جمال القبائل أو قطعان كل من يعهد اليهم بقطعانه ، ويعرفون بكفاءتهم وامانتهم ، ويذهبون الى الكويت فيؤجرهم سكان المدن الذين يملكون قطعانا ، فيأخذون هذه القطعان مسافات كبيرة ويرعونها مع قطعانهم على بعد مئة ميل جنوب الكويت حيث يتوفر الماء في الصيف ، ولأنهم أمناء الى اقصى حد يعتبرون مسئوليتهم عن كل حيوان يعهد به اليهم جزءا من الفخر القبلي .

والبدو الرحل لا يربون سوى الجمال ويجوبون بها ، لمدة تسعة شهور من السنة ، داخل اقاصي الصحراء بعيدا عن الحضارة والمدن حيث تتوفر افضل المراعي بعد ان يهطل المطر في الشتاء ، وهؤلاء البدو الاصليون لا يتزوجون الا من قبائل مثلهم ، من هذه القبائل ، عنزة وشمر وحرب ومطير والعجمان والظفير ومره وقحطان وعتيبة والدواسر وسبيع والحويطات وبنى تميم . وتنتسب العائلات الحاكمة في السعودية والكويت والبحرين الى عنزة ويعتبرون أنفسم ارستقراطي الصحراء ، وتشكل بعض القبائل الاخرى مجموعات كبيرة هامة ، وتمتلك العوازم ـ على سبيل المثال ـ مئة ألف جمل ومئتين وخمسين الف رأس غنم .

والقبيلة البدوية وحدة مترابطة الذرية ، ومن أهم صلات القرابة (العم) . ويعرف ابناء القبيلة او قسم منها ممن ينتسبون الى جد مشترك بأبناء العمومة ، بعض القبائل اكثر تشددا من غيرها في تفسير هذه العلاقة ، ومن هؤلاء مطير والعجمان الذين يحفظون نسبهم الى الجد السابع ، اما ماقبل ذلك فيعترية الغموض . وتتشابك في هذه الحالة فروع وأقسام القبيلة ضمن عائلة صغيرة او كبيرة وفي النهاية تدعى جميع فروع القبيلة صلة بعضها ببعض عن طريق

الملك عبدالعزيز
آل عبدالرحمن
آل فيصل آل سعود

سلالتها من جد بعيد يعود اليه اسم القبيلة .

يعتمد رجل القبيلة في ازماته على ابناء عمومته الذين يهبون لنجدته وعليهم ان يشدوا ازره بغض النظر عن اي اعتبارات ، وتتعدى - في بعض الاحيان - صلة ابناء العم نطاق القبيلة الواحدة لتشكل الاساس لعلاقة نسب او قرابة بين قبيلتين متباعدتين ، ومثال ذلك قبائل مطير والعجمان اللتان كانتا على عداء مستديم تغيران بعضهما على البعض ، ولكن اذا تعرضت أي منهما الى عداء خارجي وضع العداء بينهما جانبا واتحدت القبيلتان في مواجهة العدوان ، ويرجع السبب في ذلك الى سلالتهما من جد مشترك وهو (يام) وبهذا اصبحتا أبناء عمومة ، وتعتمد العائلات المالكة - ابن سعود (المملكة العربية السعودية)

والصباح (الكويت) وآل خليفة (البحرين) بعضها على البعض في مواجهة الصعوبات كونهم أبناء عمومة من عنزة وينتمون الى جد مشترك ، هذه الملاحظات تنطبق على صلات القرابة من جانب الذكر فقط ، وتعرف صلات القرابة من جانب الام بـ(الخوال) وبالطبع لهم اهمية ولكن ليس عليهم تلك الالتزامات كما لبنى العم .

ويلتزم أبناء العمومة بقضايا تعتبر مقدسة ، فمثلا على رجل القبيلة ان لا يسرق أبناء قبيلته حتى ولو كان لصا والا يهاجم ابن عمه عند الفجر او يغزوه بعد منتصف الليل حتى ولو كانا على حرب ، لأن ذلك من افعال العار . وقد طرد فلاح بن خضير من قبيلته مطير ومنع من التخييم او الاقامة في ارضها بسبب خرقه لهذا العرف ، وابن خضير من اثرياء الكويت البارزين يملك عددا كبيرا من الجمال والأغنام ، ومع انه لا يمت بصلة لأى عائلة من الشيوخ الا ان ثروته قد حققت له مكاسب هامة ونظر اليه الجميع بعين الاحترام ابتداء من شيخ الكويت فما دون . كان في الصيف يبحر بأحد قواربه الكبيرة للبحث عن اللؤلؤ ويعيش بقية السنة مع اخوانه من مطير في الصحراء يتجول معهم في مناطق الصمان والقرعة والدبدبة .

لفلاح ولد وسيم عمره واحد وعشرون عاما تشاجر مع والده بسبب رغبة الاخير تزويجه من فتاة لا يرغب فيها ، وتكرر الشجار وتبادل الاثنان كلاما جارحا ، وعندها قرر الابن ـ بدافع اليأس ـ ترك والديه وبيته والفرار الى العراق . وهكذا استعد للأمر بحيطة ، وبينما كانت مطير تخيم في الدبدبة تسلل راكبا احسن جمال ابيه ومن خلفه ابل والده ايضا ، كما اخذ بندقيته وجفته* وحفنة من التمر وقربة ماء صغيرة . أمامه اربعون ميلا فقط ويصبح في مأمن على الحدود .

عند الفجر اكتشف ابن خضير هروب ابنه فامتطى جملا آخر واخذ يجرى بأقصى سرعة بين خيام مطير ويصرخ مدعيا ان خادمه من عنزة قد سرق جمله وابله وبندقيته في الليل وهرب بها «الحقوه .. يا أهلي ، ما زال هناك وقت» . وفي غضون عشر دقائق كان كل مطيري يملك جملا أو ناقة فوق سرجها في صرخة واحدة خلف الصبي . طبعا ، لو قال ابن خضير ان الذي سرقه هو ابنه لما حرك احد ساكنا ولكن عندما يكون المعتدي من قبيلة عنزة التي يناصبونها العداء القديم فتلك قضية اخرى . كانت آثار اقدام الابل التي اخذها الصبي بارزة لذلك كان من السهل ملاحقته بأقصى سرعة ، وبعد ساعتين رأى المطاردون طريدتهم في الافق فانقضوا خلفه بسرعة لا يعيقهم عائق . ولما دنا المطاردون اكثر فأكثر قفز الهارب من جمله ، ولكن أين المفر .. فالمنتقمون مطبقون عليه ، والكل يعرف مصير السارق في الصحراء . فالضرب لا شيء مقابل وصمة بالعار وتصنيفه باللص ذلك اثم سيظل يدفع ثمنه طوال حياته . رأى الولد المذعور جموع المنتقمين فرفع يديه وقفز عن جمله الى الارض مواريا وجهه في التراب ، انقض البدو عليه وأخذوا يلكزونه في ظهره بخناجرهم لكي يظهر وجهه فيقطعون انف هذا (السارق العنزي) وأخيرا بعدما اشبعوه ضربا وتجريحا امره الشيخ محمد الوطبان من الدويش بالوقوف . فما ان وقف الصبي حتى عرفه الشيخ المطيري بلمحة بصر

ليس فقط كابن صديقه وانما ماهو اسوا من ذلك بكثير ، ابن قبيلته . لم يكن مسموحا في عرف الصحراء الصاق تهمة السرقة بابن أخذ من ممتلكات أبيه ، وكمن اصابته فجيعة زجر قومه بالكف عن إيذاء الصبي واستدار الى ابن خضير - الذي كان صديقه الى ما قبل تلك اللحظة - يريد ذبحه ولكنه لم يفعل مخافة شيخ الكويت كما اخبرني . وقد علمت فيما بعد ان أنف الصبي لم يقطع بكامله وانما رأسه فقط ، الا ان وجهه وجسده كانا مهشمين . وقد سمعت فيما بعد انه رفع قضية ضد والده الذي ادانته المحكمة فقط لادعائه بأن ولده من عنزة ، واعتقد بانهما قد تصالحا فيما بعد .

وتحمل علاقة أبناء العمومة ما يسمى (ديه) وهو المال الذي يدفع تعويضا عن جرح أو قتل انسان . ويطبق قانون القرآن الكريم (العين بالعين والسن بالسن) في جميع انحاء الجزيرة العربية مع بعض التساهلات الطفيفة التي تلائم الظروف المحلية . فالقاتل مع سبق الاصرار يقتل ، وخلق العاهات لفاعلها مثلها . وقد يقبل أهل القتيل أو الجريح أو المشوه تعويضا ماليا يدفعه المعتدي حسب الشريعة الاسلامية . اما اذا ثبت ان القتل كان بالخطأ ففي هذه الحالة يتفق الطرفان على ان يدفع القاتل مبلغا من المال عن طريق وسيط من محكمة الشريعة أو عن طريق الأمير الحاكم أو الشيخ حسب ما تقتضيه الحال . والثمن المتعارف عليه عن القتل بين ابناء العمومة هو خمسون جملا ورجلا وبندقية ، ويختلف الثمن ان كان القاتل غريبا . اما اذا كان المقتول شيخا فلا يفصل في القضية غير الثأر .

ومثال على قانون التعويضات ما أقرته شركة نفط محلية كقاعدة للمصالحة وهو ان تدفع الشركة لأي عامل أو لذويه في حالة وفاته أو اصابته اثناء العمل تعويضا كاملا قيمته ثلاثة آلاف روبية عن القتل او الاصابة بالجنون أو فقد اليدين أو الرجلين . ونصف تعويض عن فقد يد أو رجل أو عين أو خصية واحدة ، وربع تعويض عن فقد جزئي للاذنين ، وثمن تعويض عن فقد كلي لأذن .. الخ . وتقل قيمة التعويض بين البدو لأن البدوي لا يتسنى له جمع المبلغ الذي قد تسنه الشريعة .

ويسمى المال الذي يدفع تسوية لقتل أو اصابة شخص بين قبائل العراق (الفصل) ويصحب ذلك الفصل مبلغ من المال يسمى الحشم (اكرامية) إذا كان الجرم خرقا لشرف القبيلة . ففي عام ١٩١٦م ، تعرضت اثناء عودتي من حفلة زفاف الى كمين عند سوق الشيوخ في العراق مع انني اتخذت احتياطاتي بالسفر مع مرافق لضمان سلامتي . وقد اقر لي شيخ القبيلة المسئولة عن سلامتي مبلغ خمسمائة روبية كفصل مقابل الدم الذي نزفته واربعمائة روبية اخرى اكرامية لأنني جرحت وانا في حماية رجل من القبيلة التي ضربتني .

ويقوم على راس القبيلة وفروعها شيخها . وينصب الشيخ من أسرة حاكمة بالوراثة . ويجب ان يكون الشيخ من أسرة محددة ، فبعد وفاة الشيخ يجرى استفتاء أو انتخاب لاختيار أحسن افراد العائلة الحاكمة لمشيخة القبيلة والذي يجب ان تتوفر لديه الخبرة الضرورية والمؤهلات الجسدية والعقلية والقيادية وخاصة الشجاعة والحظ الحسن . ويؤمن البدو بأن الشجاعة

والقيادة عديمة القيمة بدون الحظ ، لان الحظ الحسن هو الذي يحمي المشيخة . وترغب القبائل في شيخ حاكم يكون محظوظا في السلم والحرب . ويعزو ابن سعود ـ ملك المملكة العربية السعودية ـ عظمته الى حظه الكبير وهذا ما تؤمن به كل قبائل الجزيرة العربية (مع حنكته)

صلاحيات الشيخ محدودة في بعض المجالات ولا يمكنه حتى في وقت الحرب ان يصدر الاوامر الى مختلف فروع القبيلة ويتوقع منهم الطاعة ، وعليه ان يأخذ دائما بعين الاعتبار وجهة نظر الرأي العام . فإذا كانت القبيلة تتوقع ان يشن عليها هجوم أو غارة على الشيخ ان يبعث بطلب القيادات لمناقشة ودراسة الخطة المعدة لمواجهة العدوان وبحثها من كل زاوية قبل شهر من توقعها ، فإذا اقتنعت الغالبية بصواب الخطة يبدأ تمركز المقاتلين في اماكن مهيأة مسبقا لذلك ، فإذا ما اندلعت الحرب ينضم القادة الى شيخهم الذي يجب ان تطاع أوامره .

ولكي يحفظ الشيخ مقامه عليه ان يبرهن دائما انه الاب لقومه كأن يعرف مشاكل كل عائلة ويقدم النصح والحلول العادلة كلما طرحت القضايا بين يديه ، وفوق كل ذلك يجب ان يكون بيته مفتوحا للجميع وان لا تنقطع القهوة من بيته وان يدق الهاون من الصباح حتى المساء ، وحتى هذا غير كاف ، اذ يندر ان يأكل أبناء القبيلة اللحم ، بالكاد يتذوقونه من عام لآخر ، لذلك وجب على شيخ القبيلة ان يختار المناسبة لاقامة احتفال يذبح فيه جملا يأكل منه ابناء القبيلة حتى الشبع ، ومثل هذا الاحتفال يمكن للشيخ اقامته بمناسبة قدوم ضيف كبير او حفل زفاف او طهور وما شابه ذلك . واكثر جزء في الجمل يحبه البدو سنامه ويرون ان له لذة كبيرة وخاصة ايام البرد . اما بالنسبة لي فقلما اكلت من لحم الجمال لأنني وجدته قاسيا وصلبا ولكن البدو يحبونه .

والشيخ الكبير يذهب الى ابعد من ذلك بكثير فيبعث بانتظام الى فقراء الحال من قبيلته عباءات للرجال وأقمشة لنسائهم يخطنها جلابيب مما يدخل السعادة الى قلوب النساء والرجال على السواء . وتلعب زوجة الشيخ دورا في حفظ مقام زوجها ، وتظل نساء العشيرة على اتصال بها يحدوهن الأمل ، غير المعبر عنه بالكلام ، بالحصول على المعونة لاضافتها الى دواليب ملابسهن ومطابخهن . وكان فيصل الدويش الكبير سيدا في اسعاد نساء القبيلة وكذلك كان ابن سعود . من اهم القضايا ان لا تلحق صفة البخيل برئيس فاذا ما نعت بهذه الصفة انتهى نفوذه .

يعيش الرجل العادي في القبيلة حياة قاسية وصعبة ويفتقر دائما الى المال. فاذا لم تقدم له هبات يضطر الى السرقة أو الغزو ، فان منع من الغزو فليس امامه الا ان يصارع الحياة بقسوة . ويتكون طعامه اليومي معظم ايام السنة من حليب الجمال وحفنة من التمر ، ويقل عن هذا المعدل نصيب راعي الجمال . وبسبب سوء التغذية ورداءة الماء تنتشر الامراض الكثيرة بين البدو اضافة الى صعوبة الحياة في الصحراء وخطورتها مما يجعل مدة حياة البدوي قصيرة . وتزحف الشيخوخة الى الجنسين مبكرا فتشيب لحية الرجل وهو في سن الاربعين وتعتبر المرأة عجوزا في سن الثلاثين . يتناول ميسور الحال مثل صديقنا سالم

المزين او شيخ القبيلة وجبة رئيسية في اليوم وعادة ما تكون في المساء وتتكون من الأرز المطبوخ بالسمن وحبات من التمر مغموسة بالزبد ولبن يتبعه القهوة ، وقلما يأكل اللحم لعدم اقتداره على ذلك . فاذا ما طرا زائر يذبح له المضيف نعجة او خروفا وتأكل العائلة ما تبقى من الذبيحة . ولا يحصل البدوي الفقير على اللحم الا اذا استجداه ممن هم ايسر حالا منه او عندما يأتي زائر لشيخه أو رئيسه فيكون نصيبه بقية الذبيحة .

ويؤكل الأرز عامة اكثر من الخبز في المقاطعة الساحلية (الحسا) اما في المناطق التي ينمو فيها القمح فيفضل الخبز الذي يندر توفره لغير الميسورين . ومثل كل المسلمين يأكل البدوي بيده اليمنى فقط بعد ان يقوم بغسلها . وهو دائم الجوع ويأكل بشراهة كل ما يقع في طريقه مثل الجراد وأي من الزواحف القابلة للاكل مثل الضب والثعالب الصحراوية . ويقطع رقبة اي حيوان أو طير يصيده أو يقنصه بعد ان يذكر اسم الله «بسم الله الله اكبر» . ويأكل الفطر والكمأ في فصل المطر وان كانا لا يتوافران الا لفترة قصيرة . وقلما يغسل يديه بعد الطعام لقلة الماء لذلك فهو يمسحهما بالخيمة ثم بلحيته . ويفخر أبناء قبيلة العجمان ببقع الدهن على خيامهم لانها تدل على كرم الضيافة .

وثياب ابن القبيلة في مثل تدنى مستوى طعامه وهي عبارة عن دشداشة من القطن وعباءة رثة وكوفية وعقال . من اكثر مصاعب البدوي عدم توفر الثياب الكافية للدفء ، فالشتاء في الصحراء قارص وتهبط درجة الحرارة الى ما تحت درجة التجمد وتهب رياح ثلجية . وتعمل المرأة ثيابها بنفسها ولا تملك مقصا أو خيطا ، ولكنها تقطع القماش بأسنانها وتسلت منه الخيوط التى تخيط بها الثوب . وتلبس النساء سراويل طويلة ، وكذلك الرجال ، كما يلبسن دشداشة ملونة بأكمام طويلة وثوباً من القطن الأسود . وتلبس المرأة البدوية خارج الخيمة عباءة صوفية سوداء اثناء تواجد الرجال فى المنطقة وتغطي شعرها بخرقة قطنية سوداء تنسدل فوق الثوب ، ويختلف الخمار من منطقة الى أخرى . ففي المناطق الشمالية من الكويت تلبس النساء ما يسمى (ملفع) وهو غطاء أسود شفاف يغطى الجزء الأسفل من الوجه ، أما فى الجنوب فتلبس المرأة البدوية البرقع وهو غطاء للوجه مصنوع من القماش الخشن الاسود وبه فتحتان للعينين ، وفى جزيرة فيلكا وعمان تلبس (البطولة) وهي غطاء من القماش الخشن الأسود أيضا .

وتحت الخمار تزين المرأة جلدها بالوشم والحناء . وتنتشر عادة الوشم بشكل خاص بين نساء القبائل فى العراق وتقل عند نساء البدو فى الجزيرة العربية . ويندر التزين بالوشم بين القبائل التى تتبع السلفية وتقوم النساء بطحن الحناء وخلطها بالماء حتى تصبح عجينة جامدة ثم تستعمل عودا من الخشب وترسم على يديها ورجليها الاشكال التى تريدها ، وتجف الحناء أمام النار بسرعة وتتشقق ثم تتساقط أو تقشر وتتكرر العملية ثلاث مرات أو أربع للحصول على لون داكن وتستعمل بنات البدو الحناء الحمراء بينما تفضل نساء المدن الحناء السوداء وخاصة على

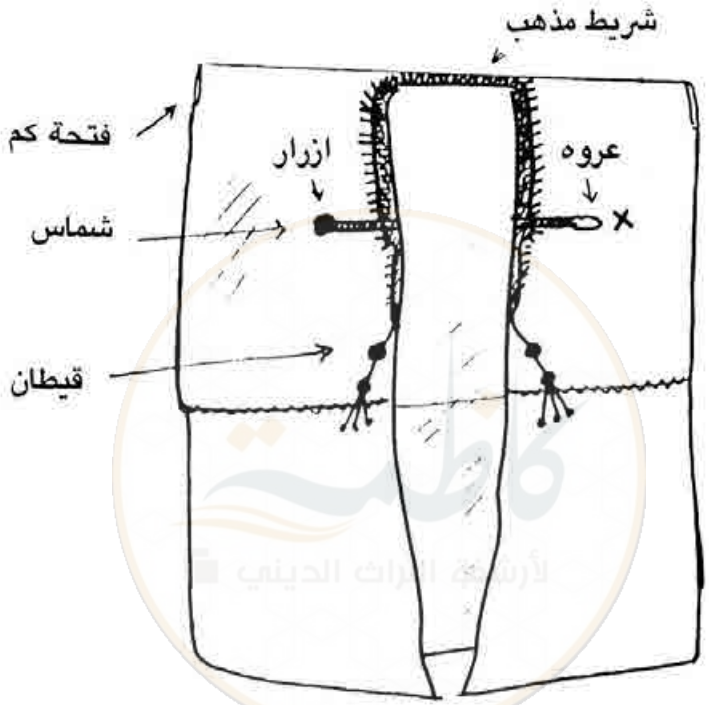

البشت

عباءة او بشت : عبارة عن قطعتين من نسيج وبر الجمل او شعر الماعز وقد يكون النسيج سميكا او رقيقا ، خشنا او ناعما حسب امكانية الشخص تطرز حواشية بشريط من الذهب (زري) حول الرقبة والجانبين اللذين ينتهيان بشرابتين من الخيوط الذهبية ايضا . ويشير الخط الافقي (×) الى ان العباءة من النوع الذي يلبسه شيوخ الكويت . وهو بنى قاتم ..

الفروة : معطف شتوي زاهي الالوان يصنع من قماش اسود وازرق ويزركش بخيوط من اللون القرمزي او الاخضر او البنفسجي او العنابي . وشرائط (كما في الصورة) ذات اللون الاصفر الفاقع والاسود . وهذا المعطف مبطن من الداخل بفرو الغنم الاسود او الابيض ، وغالبا ما يفضل اللون الاسود ، وهو مريح ودافيء جدا ولا يلبسه غير الشيوخ والبدو الاثرياء .

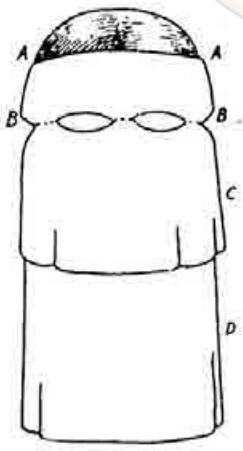

النقاب

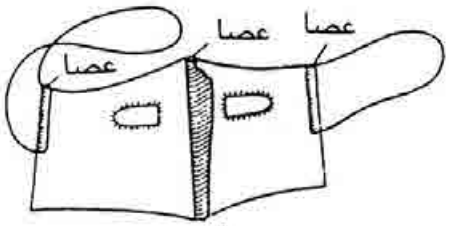

بطوله

شلحات : بيضاء اللون بأكمام واسعة

د مير : جاكيت رجالي مطرز بخيط ذهبي أو أسود

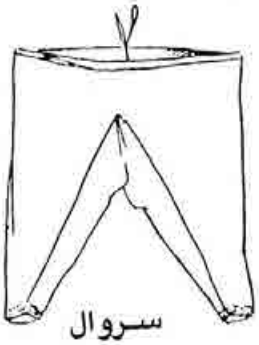

سروال

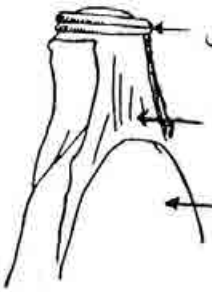

اقدامهن . وللحصول على اللون الاسود تعمل النساء عجينة ثانية من بودرة الليم والامونيا (الوسمة) ثم تضعها فوق علامات الحناء البرتقالية فينقلب اللون راسا الى اسود ويبقى على ذلك طوال عشرين يوما أو شهر ، وتغسل مواضع الحناء بالماء فقط بدون صابون .

وتجدل النساء في وسط وشرق الجزيرة شعورهن تسع جدائل اثنتين على جانبي الوجه تبينان جوانب البرقع وست جدائل رفيعة من الخلف تبدأ من منتصف الرأس والاخيرة تحت الرقبة ، وعندما ترقص النساء البدويات يطلقن شعورهن كلية فينساب الشعر على اكتافهن . وتغسل البدوية شعرها مرة في الشهر وتغذيه بالزيت مرة في الاسبوع وتستعمل احيانا خليطا من الاعشاب أو الحناء . وتنظف اسنانها بقطعة من خشب شجرة تسمى (ديرم) وهذه الشجرة تعطي الشفاه لونا أحمر يميل الى البرتقالي ويكون في غاية الجاذبية ، وهو شائع الاستعمال عند المدنيات أكثر منه عند البدويات .

وتتزين النساء بالمجوهرات مثل الخواتم والأساور والعقود وخواتم الأنوف . وفي المناطق السفلية يمنع استعمال الذهب لذلك تتزين النساء بالفضة . ويلبسن اساور من الكهرمان الاصفر او المرجان الاحمر ، أما نساء المدن فمجال التزين امامهن أوسع ويمكنهن استعمال الذهب .

ينتج عن الحياة في الصحراء مهارات خاصة ، وتبدو هذه المهارات في غاية الدهشة للغرباء . فذات يوم ذهبت برفقة الشيخ احمد شيخ الكويت نصطاد في منطقة تبعدمائة وخمسين ميلا داخل الجزيرة العربية . وطوال ساعة وعشرين دقيقة ونحن نطارد في السيارة سربا من الحبارى .ولكثرة تجولنا وتعرجنا إلتبس الأمر علي ولم أعد أميز اتجاهنا فالشمس فوق رؤوسنا مباشرة والارض من تحتنا سهل منبسط على مدى البصر . وعندما توقفنا للغداء ناديت نزال وهو من قبيلة الرشايدة مشهور بمعرفته الدقيقة للصحراء . سألته (اين تقع الكويت من هنا وكم نبعد عنها ؟) وبتلقائية غريبة اشار بيديه فورا (الكويت .. هناك .. وراء تلك الشجرة ، وتستغرق الرحلة الى هناك خمسة أيام لراكب الجمل بتمهل . سير ثماني أو تسع ساعات يوميا) . ناديت غيره من أبناء الرشايدة وأجابوا جميعهم بنفس المعلومات بالرغم من أنني سألت كل واحد منهم على حده . ثم سألت نزال اين نجمة الشمال فأشار الى شجرة أخرى وقال (هناك .. يا ابو سعود) أخرجت البوصلة والخريطة وتأكدت من كلامه . كانت هذه المعرفة لدى البدو تثير دهشتي في الوقت الذي كانوا يضحكون من استغرابي ويقولون لم يكن الامتحان صعبا ، في الواقع لم يكن ما قمت به بامتحان فكل منهم يعرف كل شيء في هذه الارض . وللتأكيد على صحة كلامهم قالوا جميعا في أن واحد (بعد ربع ميل في الاتجاه الشمالي الغربي توجد أرض كمأ) وللبرهنة على ذلك قفز نزال الى احدى السيارات وانطلق مسرعا ، وبعد عشر دقائق عاد ومعه كمية من الكمأ .

الشيخ مطلق المسيلم ، من الرشايدة ، قال لي بأن قبيلته تضم أحسن مرشدين في الجزيرة العربية وان ابن هدبا أشهر مرشد في الجزيرة العربية

وان عائلته حتى النساء منهن لهن نفس المهارة . ولا يهم ان تكون الشمس واضحة فى النهار او السماء مظلمة فى الليل فالرشيدى يعرف طريقه ولا يمكن ان ينسى أيا من معالم الصحراء مهما صغر أو قلت أهميته . ومن ناحية أخرى يقر الشيخ مطلق بعدم مهارة قبيلته بعلم الاثر ويعطى الريادة فى هذا العلم لقبيلة آل مرة جنوب الحسا وواحة ببرين الذين يتمتعون بمهارات فريدة فى هذا المجال ويستطيعون قص اثر اقدام الانسان

والجمل والحصان والغنم . وفى حالة المرأة يستطيعون من تتبع آثار أقدامها معرفة ان كانت عازبة او متزوجة وحتى ان كانت حاملا أم لا .

عام ١٩٢٠ اكتشفت مهارة أخرى لدى قبيلة آل مرة عندما كنت مسافرا برفقة اثنى عشر رجلاً من رجال ابن سعود الشجعان وعلى رأسهم شاب يدعى باني فى منطقة الحسا . لم يسبق لباني ان زار هذه المنطقة ، فقد جاء من الرياض الى الهفوف لأول مرة فى حياته . وفى منتصف طريقنا الى الساحل التقينا براعي جمال قبيلة آل مرة فاقترح باني ان نشرب من حليب الجمال . وهكذا أتي بأنثى جمل وحلبت فى الحال فى قصعة خشبية وشرب كل منا نصيبه من ذلك الحليب المنعش ثم تلا ذلك القهوة .

وفجأة وبينما كنا نستريح ظهرت فتاة صغيرة من حيث لا ندرى تحتج كيف نحلب جمل ابيها دون اذن منه . وبينما كنا نداعبها بقصد اغاظتها ظهر ابوها من خلف كثيب رملي ونظر الينا جميعا نظرات تفحصية ثم أخذ يحدق بناظريه الى (بـانى) وبـادره بـالسؤال (كيف حالك .. ؟ وكيف حال والدك ..؟) أجابه باني) بخير .. الله يحفظ ، ولكن من أين تعرف والدي وكيف عرفت أنني ابنه .. لم يسبق لي المجيء الى الحسا ولم تسبق لى معرفتك ؟ أجاب المرى بدون انفعال او استغراب (هذا صحيح .. اسم أبيك شجعان اليس كذلك ؟ عرفته من خمس وعشرين سنة ربما قبل مولدك .. وقد عرفتك من الشبه الكبير بينك وبينه .. فإنا لا أنسى أبدا وجها رأيته) . لم يشعر المرى الساذج أبدا بأنه أثار بذاكرته وفراسته الحادة استغرابا ودهشة .

ولبدوى الصحراء فتنته وسحره الخاص فإن صادقته أو عملت له معروفا فلا ينساه . هو طفل الطبيعة ويعيش محكوما بكبرياء غريبة يسميها الشرف وهذا الشرف اعز من حياته ، فان وبخته أو قذفته بكلمات بذيئة هاج وحاول ذبحك او على الاقل قطب جبينه وكف عن التعامل معك . اما اذا عاملته باحترام ودعوته للقهوة فى خيمتك فقد اجتزت نصف المسافة الى كسب صداقته وثقته . حتى لو كان مرافقا او حارسا لك وعاملته على قدم المساواة بك قلما يتجاوز حدوده معك . وبعد شرفه يغار البدوى وكل عربى أصيل على شرف عائلته أو عرضه والذي ينطوى بالتحديد على حسن سيرة نسائه وبشكل خاص زوجته وأخته . وهو خفيف الظل ويفهم الطرائف والنكات شريطة أن لا تستهزىء به أمام ذويه او رفاقه العرب .

والبدوى فوق كل شىء متدين بطبعه .. وقد زادت حياة الصحراء وخطورتها بالنسبة للانسان والحيوان من احساسه بقربه من خالقه واعتماده عليه . ففكرة الله دائما فى وجدانه واسمه على لسانه . يصلى خمس مرات فى اليوم ولا يعمل اى

شيء بدون التوكل على الله . وتأتى واجباته تجاه الله فى المرتبة الاولى ثم تليها واجباته تجاه جيرانه ثم نفسه . ويمكن تلخيص عرفه الكامل بما يلى :

أولا : واجبه تجاه ربه .

ثانيا : حماية جاره .

ثالثا : اعتبارات الضيافة .

رابعا : مسئوليته تجاه من يسافر تحت حمايته .

خامسا : اجارة المستجير ، وأخيرا نفسه والغزو متى استطاع ثم التمسك بمكاسبه .

طموحه فى الحياة أن يمتلك - الى جانب بندقيته والذلول - (اى الناقة) دزينة من الجمال وزوجة وإبلاً وخمسين رأسا من الاغنام وكلباً . فى غضون ثلاث سنوات يتضاعف عدد الجمال والغنم بطريق التوالد . وحتى ولو لم يمتلك هذه القطعان فان البدوى لا يتعرض مطلقا لخطر الجوع الحقيقى او الموت من الفاقه نظرا للترابط العائلي ونظام الضيافة لمدة ثلاثة ايام . ومهما كان البدوى فقيرا فلا بد وان يكرم ضيفه ويذبح له حتى آخر جمل او خروف فى حوزته . وتشارك النساء الرجال بإكرام الضيف ، فاذا مر عابر أو ضيف قرب الخيمة فى غياب زوجها تسرع الى الخارج وبيدها قدر من اللبن علامة على الترحيب .

وللمرأة البدوية سحر حواء ، وهى على سجيتها لا تعرف عن العالم اى شيء وتعرف القليل عن حياة المدن مما يصل الى مسامعها . لها اشراقة وبراءة الاطفال ، قد تهب فجأة وتقطب حاجبيها بدون سبب ظاهر ، غيور جدا تحب وتكره بعنف وعاطفة قوية ، ومع ذلك فهي ارق المخلوقات واكثرها قدرة على التضحية .

تحب اطفالها حبا شديدا مع انها لا تعرف كيف تعلمهم الانضباط وتستشيط غضبا من زوجها لو حاول ضرب طفل وتنام بعيدا عنه لو لم تشعر بقربه بجانبها . ومثل ازواجهن فالبدويات يحافظن على الآداب الاجتماعية ، وهن حساسات لدرجة كبيرة تجاه سمعتهن . وفى الوقت الذى تمنع البنات العذارى من مخالطة الشبان خارج حدود اسرتهن فان البدويات يتمتعن بحرية اكثر بكثير من نظيراتهن فى المدن حيث يكن على علاقات ودية مع رجال اقربائهن فى القبيلة .

على أنه يجب القول ان للبدو أخطاء ، فهم دائمو الوساخة ولكنها وساخة الصحراء وتختلف كلية عن وساخة المدن . ولا يغسل البدو ثيابهم مطلقا انما يرمونها عندما تبلى ويحصلون على احسن منها . ويكثر الوسخ على أجساد الرجال والنساء وتعشش فى أجسادهم روائح السماد والمواشي وغيرها ، الا ان الاجزاء الهامة فى الجسم تبقى نظيفة . وتغسل المرأة شعرها مرة فى الاسبوع ببول الناقة (انثى الجمل) وترشه بمسحوق (الفرمين) مبيد الحشرات لبضعة أيام .

والبدو ونساؤهم يحسدون بعضهم البعض ولا يكفون عن اتهام غيرهم بالحسد فى الوقت الذي ينكرون ذلك على انفسهم . ولذلك فالنساء حساسات - كما ذكرت - تجاه حسن سمعتهن ويعتبرن أن أسوأ ما يحدث لهن ان يكن موضوع ثرثرة الغير ، فى حين ان كل واحدة بارعة فى تشويه سمعة الاخرى .

وكم حدث من مآس فى الصحراء بسبب زلة اللسان . والبدوى يفعل اى شىء مهما كبر الا التضحية بشرفه او شرف عائلته مهما قدمت له من اموال . ومع هذا فقد وجدت البدوى وزوجته احب وأظرف بشر فى العالم .

قبيلة مطير :

تنقسم قبيلة مطير الى ثلاث مجموعات رئيسية وهى : الدويش والعلوة والبرية ، والحكم فى هذه القبيلة لعشيرة الدويش وينظر الى بندربن فيصل الدويش ـ شيخهم عام ١٩٣٧ ـ على أنه زعيم القبيلة بكل بطونها .

قبيلة الدوشان :

تختلف عن غيرها من حيث كونها غير متفرعة وانما تتكون من مجموعة عائلات وتشكل بمجموعها مئتى خيمة . وشيوخ عائلاتها هم كما يلى :

السلطان ـ بندربن فيصل .
الشقير ـ تريحيب بن شقير .
الجبعا ـ مطلق الجبعا .
العمشا ـ محمد العمشا .
الوطبان ـ محمد الوطبان .
الماجد ـ عبدالعزيز .
المحمد ـ محمد البدر .
الفهد ـ ماجد الاصقة .

العلوة :

وتنقسم الى الموهه والدويان والقبلان ولكل منهم فروعه الخاصة .

الموهه :

أبرز شيوخ الموهه هو الشيخ بندر بن فيصل الدويش ، وفروعهم كما يلى :

البراعصة ـ شيخ السور (١٠٠ خيمة) .
الجبرا ـ شيخ ابـو راس (٦٠ خيمة) .
الجهطان ـ شيخ الـواصلى (٤٠ خيمة) .
الجدعان ـ شيخ الجديعي (١٠٠ خيمة) .
الخواطره ـ شيخ البييرى .
الرخمان ـ (الجريبات) شيخ ابن جريبان (المحمد) شيخ ابو الصفرا (١٨٠ خيمة) .
الصعانين ـ شيخ ابن متعب (٨٠ خيمة) .

الذويان :

أبرز شيوخهم شيخ الفغم وتتكون مجموعة الذويان من فرعين رئيسيين لكل منهما مجموعة من العائلات القيادية ، وهى كما يلى :

الملاعبة ـ الشيخ ابن غنيمان (٣٠٠ خيمة) .

العائلات الرئيسية :

الغنيمان ، العميرة .
السعدون ، الغشيلات .
الفتاح ، الرواشدة .
المثاجيب .
الصهبا ـ شيخ الفغم .

العائلات الرئيسية :

عرفان ، الجماعين .
الدمانين ، الجريد .

الفغوا ، الجوافية .
الحجى الحديرات .
القبلان : أبرز شيوخهم ابن لامى ، وفيما يلي الفروع :
العراقيب ـ الشيخ المعرقب (خمسون خيمة) .
آل بو وزان ـ الشيخ ابن الرشدان (مائتى خيمة) .

العائلات الرئيسية :

المجالدة القشعان .
المرايسة .
العنة ـ الشيخ ابن الجغيثيم (مائة وخمسون خيمة) .

العلائلات الرئيسية :

الخريبيطات أبو شعيبين
اليحيي (يحيي) ـ الشيخ ابن شبلان (مائتى خيمة)
العائلات الرئيسية :
الشويرا
الشيابين
القعيمات ـ الشيخ ابن لامي (مائة خيمة) .
مجموع خيامهم : سبعمائة خيمة .

البريه :

وتنقسم مجموعة البريه المطيرية الى أولاد واصل وأولاد على وبني عبدالله .

اولاد واصل :

أبرز شيوخهم شيخ المريخي .
وفيما يلي الفروع
الأفصح ـ شيخ الفائي (عشرون خيمة) .
البرزان ـ شيخ ابن شويربات ، ابن حنايا (مائتى خيمة) .
الدياحين ـ شيخ المطارقة (مائتى خيمة) .
ابن جربوع (كويت) .
الهواميل ـ شيخ ابن دماخ (خمسون خيمة) .
المريخات ـ شيخ المريخي (ستون خيمة) .
العوارث ـ شيخ ابن الزويد (ثلاثون خيمة) .
العبية ـ شيخ ابن عشوان (سبعون خيمة) .
المحارسه ـ شيخ الهفتا (خمسون خيمة) .
الوساما ـ شيخ ابن محيليب (خمسون خيمة) .
ولأولاد واصل فروع أخرى في أواسط نجد ولا يعرف عنهم الكثير .

أولاد علي :

أبرزهم شيخ ابن مساييس الذى يدعى سلالته من عنزه وفيما يلي الفروع :
السعران ـ شيخ ابن المساييس (ثلاثمائة خيمة) .
العبادين ـ شيخ ابن الجهريمان (ستون خيمة) .
الحمادين ـ شيخ الحميداني (مئة وخمسون خيمة) .
السعدون ـ شيخ المقهوى (مئة خيمة) .
الشيالين ـ شيخ الموط (خمس وعشرون خيمة) .

الشذيلات ـ شيخ الديرى (تسعمائة وتسعون خيمة) .
الدويغانيمى ـ شيخ المكنسانى (أربعون خيمة) .
الحثلين ـ شيخ ابن طيران (ثلاثون خيمة) .

مجموع خيامهم : الف وسبعمائة خيمة تقريبا :

ولا يعرف الكثير عن هذه الفروع من حيث عددهم وقياداتهم لأنهم يجولون فى أراضي القصيم والحجاز وجنوب الدهناء والمناطق الغربية .

بنو عبدالله :

ينقسمون الى الفروع التالية :
الميمون ـ شيخ ابن قرناس .
ابن الشرار .
ابن الفدغان (ثمانمائة خيمة) .
آل صعب ـ شيخ ابن ثمنا (ستمائة خيمة) .

الثيان ـ شيخ ابن سقيان .
ابن جبرين (تسعمائة خيمة) .

ولا يعرف عنهم الا القليل من حيث عددهم وقياداتهم وفروعهم وتعيش القبيلة بأكملها فى أواسط نجد ويقال بأن عددهم كبير وخيامهم تعد بأربعة الاف خيمة على الأقل .

وتتجول مجموعات الدوشان والعلوة (مطير) وأولاد واصل ـ وهم فرع من (البرية) فى الشتاء فى منطقة تمتد من الحزام الرملي فى الدهناء جنوبا حتى الكويت شمالا .. حول الجهة الشرقية من وادى الباطن . ولا يقتربون من مناطق قبائل العجمان والعوازم فى المنطقة الساحلية من مقاطعة الحسا . ويدعون ان افضل مناطق الآبار فى الصبيحية والطويل وحول الكويت تقع ضمن مراعيهم منذ قدم التاريخ . ويخيم هؤلاء جميعهم فى الصيف حول الآبار الشهيرة فى الأرطاوية والقاعية والحفر والبطين والصفاء والقرعة والوبره وقرية العليا وقرية السفلى .

ولقبيلة مطير تقاليد عريقة وتعتبر من أعظم وأنبل القبائل فى الجزيرة العربية ، وقد كانت أثناء حركة الاخوان أشد القبائل تعصبا لمذهب السلفية وكان أبناؤها أحسن مقاتلى ابن سعود ، وعندما تمردوا عليه عام ١٩٢٩/١٩٣٠ ظل حوالي نصف القبيلة مواليا له بقيادة ابن المصيص وابن شقير وغيرهما والنصف الآخر انقلب ضده بقيادة فيصل الدويش . وعندما أخمد ابن سعود تمرد الاخوان اعتقل فيصل الدويش وسجنه فى الرياض حيث مات هناك وصادر جمالهم (الشروف) مما ترك آثارا سيئة على العلاقة بينهم وبين الحاكم السعودى بالرغم من حسن معاملته لهم .

أبرز خصائص هذه القبيلة قدرتها على شن هجوم مفاجيء من قاعدة بعيدة . والمطيرى ـ عموما ـ شجاع وجسور وعنيد . وتربي القبيلة الخيول والجمال وعددا قليلا من الماعز ، ويملكون أشهر الخيول . وحتى عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ كان المتمردون يلقون فى الميدان حوالي ستمائة فارس .

تلبس الواحدة من نسائهم برقعا أسود ينسدل فوق وجهها بصورة جذابة . وتفخر نساؤهم بمجالسة الضيف متى تأكدن من هويته وأخلاقه .

أعداء قبيلة مطير قبائل شمر والظفير . وكانت العجمان أيضا معادية لمطير في السابق ولكنهما تحالفتا عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ وحصل تزاوج فيما بينهما .

العجمان :

تتكون قبيلة العجمان من عدد من الفروع وتتبع مشيخة الحثلين من فرع النجعة من معيض . وفيما يلي جميع فروع القبيلة وشيوخها وعدد خيامها :

العرجة ـ شيخ ابن رماح (٢١٠ خيام) .

الفروع : عرجه ـ مرجح ـ رزق .

الظعين ـ شيخ ابن جمعة وشيخ ابن الدمير (١٥٠ خيمة) .

الفروع : عمير ـ ظعين ـ حرضان .

الهادى ـ شيخ المتلقم (١٣٠ خيمة) .

الفروع : الهادى ـ وايل .

الهجان ـ شيخ محمد الصباح (خمسون خيمة) .

الهتلان ـ شيخ ابن سعدى وشيخ ابن زمامان (مئة وستون خيمة) .

الفروع :

الدهامشة ـ جاهل ـ مطلق ـ الرسان ، الشريث .

الحبيشي ـ شيخ غواف (مئة خيمة) .

الخويطر ـ شيخ الدمام ابن عظان (خمسون خيمة) .

المحفوظ ـ شيخ ابن مكراد (مائتى خيمة) .

الفروع : الدباسا ـ سفاح ـ محفوظ .

الحويلة (شيخ جنيفر ، وهو والد ساره زوجة فهد الحثلين) .

الحويلة ـ المفلح ـ شيخ ابن دبلان (ستون خيمة) .

المعيظ ـ شيخ ابن حثلين (ثلاثمائة خيمة) .

الفروع :

حبيش ـ الكراه .

الفروع : الموبق ـ النجعة ـ الزيز ـ المغاطي .

المسرع ـ شيخ ابن عثين (تسعون خيمة) .

الرمه ـ شيخ ابن عكشان (تسعون خيمة) .

الشمير ـ شيخ ابن جنيفر وشيخ ابن خرصان (مائتا خيمة) .

الفروع : الحسين ـ الخضير .

الشواولة ـ شيخ ابن مفلح (مئة خيمة) .

الصفران ـ شيخ ابن المنيخير (مئة خيمة) .

السليمان ـ شيخ هيف ابن حجرف (الكويت) .

شيخ ابن عصيدان وشيخ ابن مسامح (الجزيرة العربية السعودية) مجموع خيامهم (مائتان وثلاثون خيمة) .

الفروع :

البغور ـ الدروان ـ الحمرا .

الحثاثا ـ القبوع ـ السليمان ـ الحجرف .

(بقي هذا الفرع من القبيلة مواليا للكويت لمدة طويلة تحت زعامة شيخ هيف ولذلك عين ابن سعود شيخين آخرين لقيادة القبيلة ، ولكن بقي هيف القائد الحقيقي في نظر القبيلة) وفي عام ١٩٣٧م كان للقبيلة شيخان ، خالد الحثلين (عينه ابن سعود) وراكان الحثلين (زعيم القبيلة) .

وتتجول القبيلة في الشتاء في مقاطعة

الحسا من حدود الكويت حتى اقاصي الجنـوب فى الهفوف . وفى الصيف يخيمون على طول وادي المياه فى الحسا حيث وفرة المياه . وتوجد مخيمات القيادة فى نطاع وغنوة والمليجة والصرار والعوينة فى وسط الحسا . والعجمان الجنوبيون يخيمون حول مدينة الهفوف في الصيف ، ويجول فرع الحجرف ومجموعة من الهادى ـ الذين ظلوا لسنوات عديدة موالين لشيوخ الكويت ـ فى اراضى الكويت ويخيمون فى الجهراء فى فصل الصيف .

وتزعم قبيلة العجمان أنها تستطيع أن تلقي فى الميدان بما يزيد عن عشرة آلاف مقاتل الا ان هذا الزعم مبالغ فيه والحقيقة ان عدد مقاتليهم يتراوح ما بين ٥٨٠٠ و ٨٠٠٠ كحد أقصى . واثناء الحروب يطلقون صرخات عديدة ولهم تقليد آخر يرفعون شعورهم فرق رؤوسهم ويعصبونها بشريطة حمراء .

ويزعمون أن أصولهم من نجران وتربطهم صلات قرابة بقبائل عديدة وخاصة قبيلة (مرة) عن طريق سلالتهم من جد مشترك (يام) . ويؤكدون على ان أبناء قبيلة مرة إخوة لهم بالدم وتهب القبيلتان لمساعدة بعضهما البعض اذا تعرضت اى منهما لعدوان ، والتقليد المتبع ان تبعث القبيلة رسولا على جمل يعقد حول عنقه شريطا احمر ويصرخ الرسول بأعلى صوته (عيال مرزوق) وهو نداء الحرب والنخوة لأبناء (يام) . وفى هذه الحالة تتحد القبيلتان فى مواجهة العدو المشترك حتى ولو كانتا في حالة حرب وهو أمر عادى .

تهتم القبيلة بتربية الجمال والخيول وخيامهم لونها أسود أو بني وتوضع على رؤوس الأعمدة الجانبيـة والقواطـع الداخلية شرائط بيضاء عريضة . وتغطي المرأة وجهها بغطاء من قماش لماع مغاير للبرقع الأسود الذي تلبسه نساء مطير والعوازم والرشايدة . والعجمي كالمطيرى كريم مع الغرباء تختلط نساؤه بالضيوف متى حسنت النـوايـا بينهم ، وأهم خصائص العجمان جديتهم في المعارك واخلاصهم لبعضهم البعض وميلهم للنكـات وتجاذب أطـراف الحديث . مذهبهم سني حنبلي ، وقد كانوا جميعا من الإخوان . وفي عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ تحالف حوالي نصف القبيلة مع قبيلة مطير ضد ابن سعود . وقد قام المتمردون من العجمان ـ الذين يخيمون على حدود الكويت ـ بعدة غزوات جريئة وناجحة ضد ابن سعود في الرياض والهفوف ليبرهنوا له على قدرتهم فى شن الهجمات من مناطق بعيدة .

العدو الرئيسى لقبيلة العجمان قبيلة الظفير ويكنون عداء قديما لقبائل مطير وشمر والسبيع والسهول . كذلك يوجد عداء شديد بينهم وبين العوازم لأن العجمـان يعتبرون العـوازم جماعـة هامشية الى أن جاء ابن سعود ومنحهم صفة القبيلة المستقلة .

قبيلة شمر ؛

تتبع الفروع التالية من قبيلة شمر ابن سعـود ملك المملكـة العـربيـة السعودية :

مجمـوعـة العبـدة : شيـوخهم الرئيسيون ابن علي وابن شريم وابن جبرين وابن عجيل .

مجموعة أسلم : (الصياح : شيخ مشعل ابن طواله وشيخ محمد الوجعان .

مجموعة السنجارة : شيخ رمـال وشيخ ابن ثنيان .

(طمان) : شيخ مشعل ابن طميات .

(طميات : شيخ ابن عياش وشيخ

متعب الرباع .

اما اكبر واهم عشيرة فى قبيلة شمر فهي عشيرة الجربا التى تقطن المناطق الواقعة بين بغداد والموصل على يسار ضفة نهر الفرات وهي موالية للعراق . وتوجد روابط حميمة بين شمر جربا وشمر نجد (المذكورين أعلاه) وخاصة روابط النسب والتصاهر .

قبيلة عنزه : (الاصل والفروع الرئيسية).

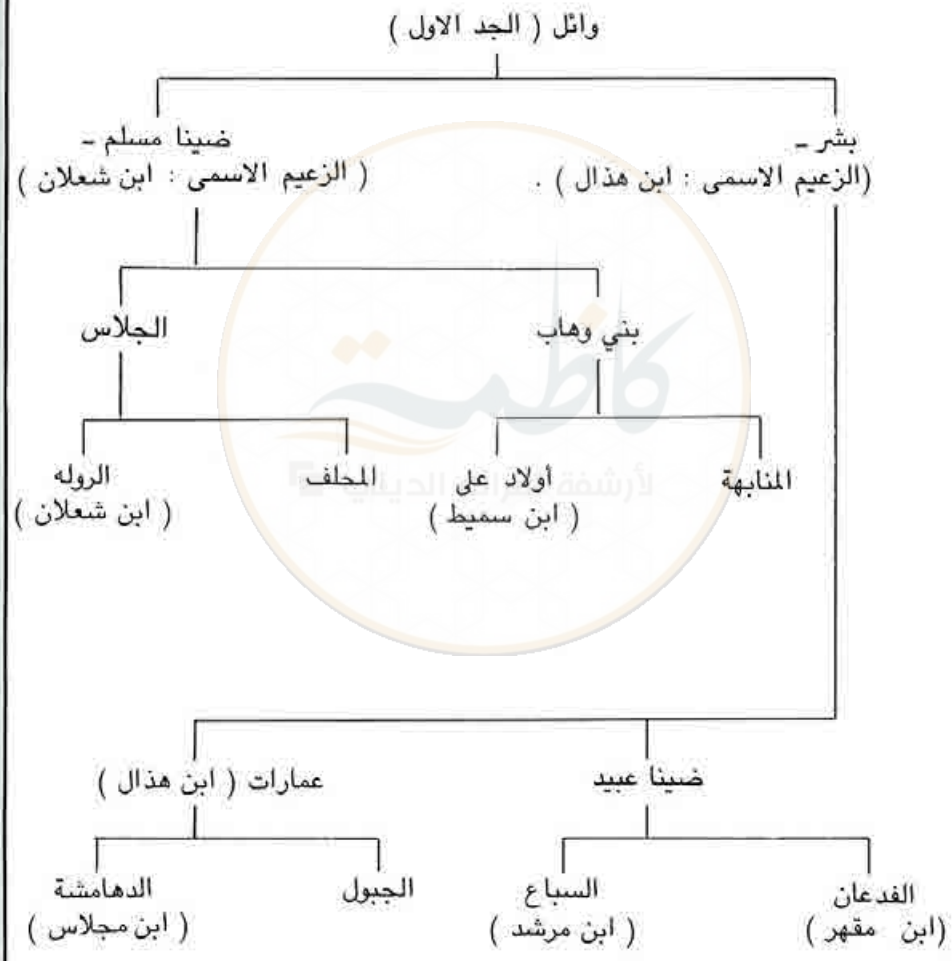

وتزعم قبيلة اولاد سليمان بانهـا تنتسب الى وائل ولذلك يعتبرون انفسهم من (عنزه) ولكن هناك شك فى ذلك .

تعتبر مدينة خيبر أول مركز لقبيلة عنزه . وحوالى عام ١٦٠٠ بعد الميلاد تحركت فروع عديدة منها باتجاه الشمال وقطنت الصحراء السورية حيث تقيم الآن . ثم توالت هجرات متتالية منهم على مدى مئة وثمانين عاما ، وقد دحرت هذه الموجات العنزية قبيلة شمر التى كانت تقيم فى الصحراء السورية ودفعتها عبر الفرات الى جنوب غرب الموصل حيث يقيمون الآن تحت اسم شمر جربا .

وقبيلة عنزة أعظم قبائل البدو من حيث القوة وعدد الجمال ، ويقال بأن عدد الذكور فى عنزة حوالى ٣٧,٠٠٠ ويملكون حوالي مليون جمل .

وفروع عنزه دائمة الاقتتال ولكنها تتحد فى مواجهة أى عدو أجنبي وتعادى كلا من مجموعة العمارات والإسبعه والفدعان يعادون الرولة ويتحدون ضدها . اما العدو التقليدى لقبيلة عنزة فهم قبيلة شمر سواء أكانوا فى الشمال او فى الجنوب ، وهو عداء ، قديم . كذلك بينهم وبين قبيلة الحويطات ، الذين يحدونهم من الجنوب الغربي فى المنطقة الواقعة بين الوجه وحدود عمان عداء قديم ولكن ليس بذلك المستوى الذى يقلق عنزه ، وبينهما مهادنات من وقت لآخر .

العلاقة بين آل سعود والصباح و آل خليفة كما يلى :

آل سعود ينحدرون من الرولة فرع المصاليخ ، والصباح من البجايدة من الجبول من العمارات (مع أن البعض يقول بأنهم من الدهامشة) وآل خليفة من الربع فرع الجبول .

قبيلة العوازم :

شيخ ابن جامع من الهدلان من القرعة . شيخ الرعيان هو ابن المانع .

وفيما يلى فروع هذه القبيلة القوية وشيوخها وعدد خيامها :

البريكات ـ شيخ راعي الفحما (ستون خيمة) .

الهدالين ـ شيخ ابن جامع (تسعون خيمة) .

الشقفا ـ شيخ الصفار (سبعون خيمة) .

العبيات ـ شيخ ابن مليحا (ستون خيمة) .

العليثات ـ شيخ ابن حجيلان (خمسون خيمة) .

العثيرما ـ شيخ متريم (اربعون خمية) .

الفغم ـ شيخ غياثى (اربعون خيمة) .

الجواسير ـ شيخ ابن خفرا (تسعون خيمة) .

المتاعبة ـ شيخ ابن مانع (مئة وخمسون خيمة) .

المحالبة ـ شيخ ابن شتلى (تسعون خيمة) .

المساحمة ـ شيخ ابن حبينه (مئة وعشرون خيمة) .

الموايقة ـ شيخ ابن ضب (سبعون خيمة) .

القراشا ـ شيخ ابن جندل (مئة خيمة) .

الصوابر ـ شيخ ابن دريع (مئة وستون خيمة) .

الشواويخ ـ شيخ الصواغ (أربعون خيمة) .

الترما ـ شيخ ابن رميح (مئة وأربعون خيمة) .

والى جانب هؤلاء هناك عدة فروع لهذه القبيلة يعيشون فى الكويت كصيادين .. الخ وليس لهم شيخ بارز .

وتقطن العوازم الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية (الكويت والحسا) . من مدينة الكويت وحتى رأس بديه جنوبا . وفى الشتاء يتجولون فى المنطقة الواقعة الى الغرب والشمال الغربي من الجهراء وحتى وادى الباطن فى الكويت . وفى الصيف تخيم مختلف فروع القبيلة حول الماء فى منطقة الكويت المحايدة وفي منطقة السودا إلى الجنوب حيث يكثر الماء والمرعى افضل مواقع التخييم عرق وما حولها .

وتستطيع العوازم أن تجند حوالى ٤٠٠٠ مقاتل بخلاف من يعيشون فى الكويت وضواحيها . وتتمتع القبيلة بسمعة حسنة بين البدو من حيث قدرتها الدفاعية ولكنها ضعيفة من حيث الهجوم وربما يعود ذلك إلى عدم امتلاكها للخيول وانحصارها في منطقة محدودة على الساحل .

قبائل المنتفق والصلبة

إن دراستنا لقبائل الكويت ونجد لن تكون متكاملة بدون الإشارة إلى الهجرات السنوية الضخمة التي تقوم بها قبائل الرعاة في إتحاد المنتفق الذين يقع موطنهم في المنطقة الواقعة ما بين السماوة وبحيرة الحمار على نهر الفرات . وتتكون قبائل الرعاة من الفروع التي تربي الأغنام في المجموعات الرئيسية الثلاث التي تشكل إتحاد المنتفق وهؤلاء ينتقلون على الحمير ، وهي وسيلة نقل ملائمة لمن يملكون قطعانا من الغنم تنتقل ببطء . ويدل وجود قطيع كبير من الحمير على أن الرعيان يقومون بهجرتهم السنوية . معظم رعيان المنتفق ينحدرون من أصل عربي معتبر ويتزاوج بعضهم مع أحسن قبائل العراق ولكن لا يصاهرهم البدوي القح (بدو الجزيرة العربية) .

ومع بداية فصل المطر يبدأ هؤلاء الرعيان بالتحرك نحو الجنوب وتنضم إليهم قبيلة بني هاشم التي تقطن المنطقة الواقعة الى الجنوب الشرقي من السماوة والزبيرية ، وهي قبيلة من الرعيان ، والزوبع والرفيعات وهما من أصل شمري . وما أن ينزل المطر في الصحراء الجنوبية حتى يشد الركاب هؤلاء الرعيان باتجاه الجنوب حيث ترعى مواشيهم الأعشاب التي انبثقت ويرتوون من مياه البحيرات التي لا تجف لبضعة أسابيع وخاصة تلك الواقعة شمال شرق الجزيرة العربية . وعندما يصلون إلى وادي الباطن ينقسمون إلى مجموعتين ، مجموعة تتجه إلى الكويت عبر المنطقة المحايدة وما دونها (مع أن أقصى حد يصلون إليه في سنوات القفار هو الجهراء في الكويت) وتتجه المجموعة الأخرى نحو الغرب الى (طوال) أبار الظفير و(طوال) المطير أو ينتشرون في منطقة الهجرة التي تقع على جانبي الحدود العراقية مع الجزيرة العربية .

وهؤلاء الرعيان غير محبوبين من قبل بدو الصحراء الأقحاح . ومع هذا فإن البدو يرحبون بالرعيان عند قدومهم كل عام حيث يجلبون معهم اللحم الضأن بأسعار زهيدة والسمن الجيد والصوف الذي يلزمهم لخيامهم وجلود الغنم .

وأثناء شهري شباط وآذار تكون قبائل الرعيان قد انتشرت في كل المنطقة الواقعة جنوب وغرب الكويت ومن أجمل مظاهر الحياة في الكويت في ذلك الوقت هو مشاهدة طوابير فتيات الرعيان اللواتي

يتابعن طريقهن على الدروب المعرجة إلى المدينة ضاحكات فرحات . وعادة ما يكون برفقة هؤلاء الفتيات قطيع من البغال الصغيرة المحملة إلى أخمص أقدامها بقرب اللبن والصوف والحطب لبيعها في الكويت : وفي المساء يشترين بأثمانها الطعام والألبسة الزاهية وغير ذلك ويعدن بها إلى بيوتهن . وتسافر البنات بدون رجالهن الذين يظلون في خيامهم أو يرعون الماشية . وبخلاف نساء الكويت فهؤلاء سافرات الوجوه ولما كان معظمهن جميلات ففي الحال يتجمع الشبان حولهن حيث يعرضن مبيعاتهن . وهن ماهرات ويحصلن على ما يحتجن إليه بالمستوى والجودة التي يبعن بها حاجياتهن . وتحمل الأمهات أطفالهن إما على ظهورهن أو في أكياس جلدية يلقين بها فوق ظهور البغال وتبدو للعيان وجوه الأطفال الصغيرة تحدق من فوق حافة الكيس الواسع .

ومثل رجالهن يتميزن بالحيوية والنشاط ، وقلما يمتطين البغال . وعندما يزرن الكويت يمشين على الأقدام من عشرة إلى خمسة عشر ميلا يوميا . وفي المساء عندما يعدن إلى بيوتهن يمشين من ستة إلى سبعة أميال خارج المدينة : فإذا حل الظلام ينمن على جوانب الطريق ثم يتابعن مسيرتهن عند الفجر بدون أن يعتريهن أى خوف أو خشية . والمرأة العراقية من المنتفق أو المعدان (وهم العرب المتجولون الذين يعيشون في المثلث المشكل من مدن كربلاء على الفرات والعمارة على نهر دجلة والبصرة)موشومة بوشم خاص يدل على قبيلتها .

وخيام الرعيان لا تنصب متقاربة وإنما فرادى أو اثنتين كل واحدة على مرأى من الخيمة المجاورة . وهذا يمكن الراعي من النهوض لمساعدة جاره إذا دعت الضرورة . وهكذا فإن الخيام تنتشر في منطقة كبيرة من الصحراء إلى أبعد ما يصل إليه النظر إما على شكل فرادى أو اثنتين أو ثلاثا ، ولهذا الإنتشار الواسع فوائد صحية كما أنه يعطي المواشي مساحة أكبر للرعي . أما إذا نشبت حرب أو حتى أشيع عن قيام حرب فيقترب هؤلاء الرعيان . بعضهم إلى البعض حيث يتمركزون في منطقة واحدة أو يشدون الرحال للعودة إلى موطنهم .

وتأتي عودة قبائل الرعيان إلى العراق مع نهاية شهر أبريل أو أوائل شهر مايو حيث يقل المطر وتجف الصحراء فيعودون بمواشيهم إلى الفرات بعد أن يبيعوا الصوف والزبد والحليب ويشتروا بأثمانها الأرز والسكر والقهوة والملابس والهدايا لنسائهم وبناتهم . وهكذا فإن عودتهم إلى الفرات مبعث سعادة لأهاليهم وذويهم . ويقدم الرعيان الأغنام الصغيرة كهدايا للحاكم في الكويت والجزيرة العربية لضمان حسن معاملتهم : وهذا التقليد يسمى (ذبيحة ومنيحة)* وكان أول من قام به هو شبيب السعدون - في القرن السادس عشر عندما ركز السعدون وهم سادة المنتفق - أنفسهم في العراق .

وتعني تقدمة «ذبيحة ومنيحة» ، «أنا خادمكم المطيع طالما أنا في بلدكم» . وعادة ما تكون نصف دزينة من الأغنام الصغيرة : وكثيرا ما يرفض الحاكم هذه العطية فتعاد الى صاحبها . وهناك تقليد آخر يسمى «منيحة» وهو أن يهب شخص يملك قطعانا كثيرة من الغنم شاة أو نعجة إلى جار أو صديق فقير الحال يستفيد من

حليبها وتظل عنده إلى أن يجف حليبها فتعاد بعد ذلك إلى صاحبها .

وهناك نوع آخر من الضريبة يسمى «خوة» وهو عبارة عن تأمين يدفعه الغرباء عندما يدخلون أراضي قبائل أخرى . فمثلا يدفع الراعي من المنتفق خوة إلى شيخ بني حرب إذا دخل أرضهم في الجزيرة العربية . وتكون الخوة عبارة عن بضعة أغنام وسمن . وهذه الضريبة متفق عليها وفي مقابلها يتمتع الغريب بالحماية . ويدفع الزائر من تلقاء نفسه زكاة إذا شعر بالخطر والحاجة إلى حماية قوية .

ويعني رحيل الرعيان السنوي خسارة كبيرة للكويت ويتطلع شباب الكويت لعودة الرعيان في العام التالي بشوق ولهفة لمشاهدة الوجوه الضاحكة من بنات المنتفق ذوات العيون الجميلة والذقون الموشومة على طريق (الجهراء - الكويت) اللاتي يمزحن ويضحكن مع كل عابر سبيل ومعنوياتهن عالية ويختلفن في ذلك عن جيرانهن من المعدان .

أما قبائل الصلبة فتوجد في النصف الشمالي من الجزيرة العربية وفي جنوب العراق ، وبالتحديد على خط يمتد شرقا وغربا عبر المدينة والرياض في الجنوب إلى خط يمتد من حلب وحتى الموصل في الشمال . وتربطهم تقاليد مشتركة بالصليبيين ومن المؤكد أن عددا كبيرا من الصليبيين قد جلبوا كعبيد إلى الصحراء العربية أثر إنهزامهم في حروب عديدة . ومن المفترض أن يكون الصلبة الحاليون أحفاد هؤلاء الصليبيين . ومن الدلائل على ذلك أن علامة القبيلة هي الصليب وأثناء احتفالاتهم يقومون بتقليد غريب فيرفعون صليبا مصنوعا من قطعتين من الخشب على شكل شعار الصليبيين . ومن الممكن جدا أن يكون اسم القبيلة نفسه مشتق من كلمة (صليب) ، كما أن أشكالهم وملامحهم ليست عربية .

معظم القبائل التي تعيش في هذه المنطقة تشتمل على جالية من الصلبة نظرا لما يتمتع به هؤلاء من معرفة خارقة لمصادر المياه في الأرض التي يعيشون فيها . وهذه المعرفة تعطيهم معرفة قيمة كبيرةلدى القبيلة التي تحميهم لما لها من فائدة كبيرة أثناء الحروب أو الغزوات الطويلة . وكثيرا ما تأخذ القبيلة الغازية مجموعة من «الصلبة» كمرشدين لمرافقتها أثناء الغزو . وكذلك كثيرا ما تشتمل حاشية الشيخ على مجموعة منهم لمعرفتهم المميزة بأماكن تواجد الغزلان والنعام .

يوجد رئيس لكل جالية من الصلبة : ولهم شيوخهم حيث يشكلون قوة بين القبائل العربية الكبيرة ويملك بعضهم قطعانا كبيرة من الأغنام والجمال . ورجال الصلبة بشكل عام تعساء يميلون إلى التملق والتزلف ويستعملون في المخاطبة عبارات الرجاء والتودد . رجالهم ونساؤهم فوق المعدل الجمالي العادي وخاصة النساء تكثر نسبة البنات الجميلات جدا بينهن . قلما تلبس المرأة من الصلبة الحجاب أو الملفع . وربما لهذا السبب يعتقد العرب أن نساء الصلبة لهن القوة على صب عين الشر التي كثيرا ما أدت إلى موت وهرب عدد كبير من الشبان البدو الذين كانوا يقعون ضحية جمالهن لأن أي عربي يتزوج من امرأة صلبية يتعرض للقتل من قبل عشيرته .

والصلبة محبون للرقص وأول شيء

يفعلونه في أي عيد أو حفل زواج هو تنظيم رقصة : فيرقص الرجال والنساء معا مما يعتبره العرب أمرا مخزيا . وقد شاهدت مثل هذا الرقص عام ١٩٣٤ في مخيم للصلبة داخل بوابة نايف في الكويت بمناسبة طهور أحد الأطفال ؛ ويجري الإحتفال خلال الأيام الثلاثة التي تسبق الطهور ويبلغ الرقص ذروته في اليوم الثالث .

وفوق الخيمة يغطى صليب عادي بنصف ثوب امرأة وهي علامة على أن الرقص سيجري على قدم وساق ، يقدم الحفلة ويرأسها رجل كبير عادة ما يكون أبو الطفل الذي تم طهوره يدخل الحلقة التي شكلها أبناء الصلبه رجالا ونساء ، وغيرهم من المتفرجين فيلوح بسيف حول رأسه ويدعو الرجال والنساء لمشاركته ويدور عدة دورات حول الدائرة البشرية ثم يصوب الجميع أنظارهم نحو خيمة مجاورة تخرج منها شابة جميلة تلبس ثيابا بهيجة وتندفع الى داخل الحلقة مكشوفة الرأس والوجه ويغطي الوشم ذقنها ورقبتها ويتمايل شعرها الطويل الكثيف مع النسيم ، وظهور الفتاة يعطي الاشارة لزوجها أو أخيها فينطلق الى الحلقة ويعانق الفتاة ويطبع على شفتيها قبلة خفيفة .

بعد ذلك تعطى الفتاة خيزرانة ويبدأ الرجل بالرقص قبالتها فيقترب حينا ويبتعد حينا أخر مطلقا فى تلك الأثناء صرخات المرح والهرج وفى اللحظة التى يبدأ فيها الرقص يتشكل كورس من نساء الصلبة يصفقن ويطلقن صرخات متقطعة .

ويستمر الرجال والنساء معا بتقديم الرقصات المماثلة ، وليس هناك ما يعيب فى سلوك الراقصين الاعندما يقوم الرجل الكبير ويرقص بسيفه عدة مرات خلف شريكته بطريقة مثيرة .

وتقوم الفتاة أثناء الرقص بالايماء لشريكها بالاقتراب منها ، فيمتنع فى البدء متظاهرا بالمحب الخجول ولكن سرعان ما يستسلم لسحر وفتنة محبوبته فيبدأ بالاقتراب منهامظهراً اعجابه ومحبته فى كل حركة . بعد ذلك تبدأ الفتاة بالدلال والتمنع بعد أن حصلت على مبتغاها فاذا ما تقدم المعجب منها أو حاول لمسها ضربته بعصاة ضربة خفيفة وأجبرته على الابتعاد .

ويرقص حامل السيف أحيانا على قدم واحدة ثم على الأخرى وفجأة يرقص على القدمين بحركات الى أعلى وأخرى الى أسفل وكان قدميه مصنوعتان من المطاط . وترقص الفتاة مثل معظم البدويات على قاع أقدامها فتقفز إلى أعلى ثم إلى أسفل وتخطو إلى الأمام ثم الى الوراء قبالة رجلها وتهز رأسها بعنف محافظة بنفس الوقت على تقدم خطوتها باتجاه الرجل وتلوح بضفائرها على الجانبين . ولا تبتسم أثناء الرقص ويظل فمها مغلقا بحزم وبين الفينة والأخرى تضع يدها فوق أنفها وفمها . وتنتهي الرقصة باندفاع شقيق الفتاة الى داخل الحلقة فيغطى رأسها ووجهها بطرف ثوبها ويأخذها الى الداخل .

يتبـــع

كاظمة
للنشر والترجمة والتوزيع

الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد العشرون - السنة العاشرة
رجب ١٤١٢ هـ - يناير ١٩٩٢م

عرب الصحراء

(٣)

تأليف : هارولد ديكسون
ترجمة : حمد السعيدان

الخيمة.. والأثاث

يصنع البدوي خيمته من فلجان * من القماش الأسود أو البني الخشن وهذا القماش يغزل من شعر الماعز أو صوف الغنم ولا يؤخذ مطلقا من وبر الجمل . ويتوقف طول وعدد الفلجان على المركز الإجتماعي لصاحب الخيمة . فالفقير يحصل على فلجان ضيقة ورخيصة طول الواحدة منها خمسة وعشرون قدما وترتكز على عامود أو عامودين فقط ، في حين أن خيمة الشيخ العادي أعرض ستة فلجان عن خيمة البدوي الفقير ويبلغ طول الواحدة منها سبعين قدما وترتكز على أربعة أعمدة . ومن غير الممكن أن تكون الخيمة أكبر من ذلك لأنها تعوق حركة التنقل من مخيم الى آخر .

(★★) الفلج : شريط من القماش يصل عرضه الى قدمين أو ثلاثة .

تواصل الوثيقة في هذا العدد نشر الحلقة الثالثة من كتاب «عرب الصحراء» وذلك لأول مرة باللغة العربية . والكتاب يعتبر مصدراً خصباً ودقيقاً وموثقاً لحياة البادية بطبيعتها وعلاقاتها وتقاليدها وسلوكياتها وتتمثل أهمية هذا الكتاب في أن المؤلف عاش بنفسه وسط البادية وسجل على الطبيعة كل ما شاهده وسمعه ومارسه

الوثيقة

تخاط الفلجان مع بعضها البعض على شكل مستطيل ثم ترفع فوق أعمدة وتشد الجوانب بإحكام بواسطة حبال الأطناب وتقسم الخيمة بقاطعين أو ثلاثة قواطع مزركشة وطويلة يبلغ طول الواحد منها حوالي ستة أقدام وترتبط أطراف هذه القواطع بالسقف خلف الخيمة وسقف وحبال الخيمة في الجانب المفتوح . ويتوقف عدد الحبال التي تدعم الخيمة من الخلف والأمام على عدد الأعمدة . مقابل كل عامود حبلان أحدهما أمام العامود والآخر خلفه ، والخيمة ذات الثلاثة الأعمدة لها ستة حبال ، ثلاثة من كل جانب . وتشد بإحكام في نهاية الخيمة بواسطة ستة حبال أخرى ثلاثة لكل جانب .

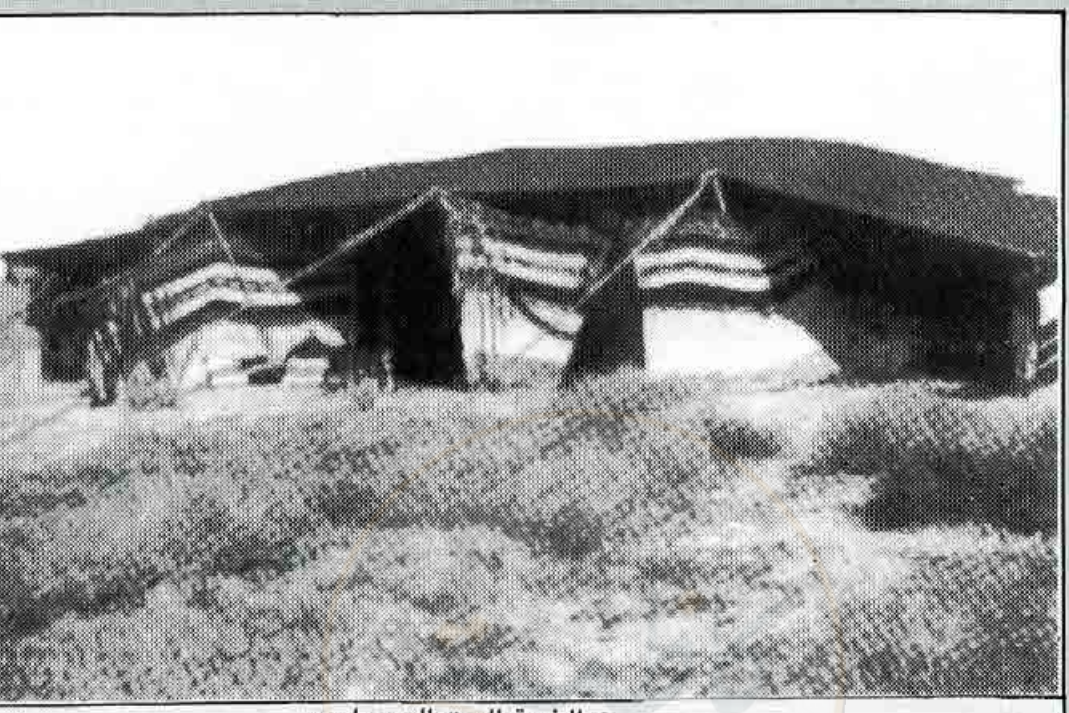

● الخيمة البيت الصحراوي

وتغلق الخيمة من كل طرف ومن الأمام في الليل بواسطة الرواق وهو عبارة عن قطعتين طويلتين كل قطعة تتألف من أربعة فلجان ضيقة ، تتصل في منتصف الجهة المقفولة من الخيمة وترتبط بجوانب الخيمة بواسطة سلسلة من الثقوب ، وتتدلى جميعها الى أسفل على شكل ستارة ثقيلة أسفلها إما مدفون في الرمل أو يبقى متهدلا اذا كانت الأرض صلبة ، وعادة ماتكون الفلجان السفلى من قماش رخيص كالخيش مثلا . لأنها تبلى بسرعة بسبب المطر والنمل الأبيض .

طرف القاطع المقابل للخارج مزركش . وتختلف أنماط الزركشة على قطع القماش الذي يصنع منه القاطع بحسب القبيلة والوقت الذي يصرف في عمل كل قطعة . ولون القطعة العليا أسود وعرضها إثنتا عشرة بوصة والقطعة التي تليها عادة ما يكون لونها ابيض بشريطين ضيقين اسودين أحدهما أعلاها والآخر اسفلها ، عرضها حوالي أربع عشرة بوصة ، وفي الوسط تتكرر نفس الزخرفة كما في القطعة الأولى . بعد ذلك تأتي القطعة الثالثة وعرضها أربع عشرة بوصة في وسطها أنموذج ثالث من الزخارف والجزء الذي يعلو الزخرفة أسود اللون والذي تحته

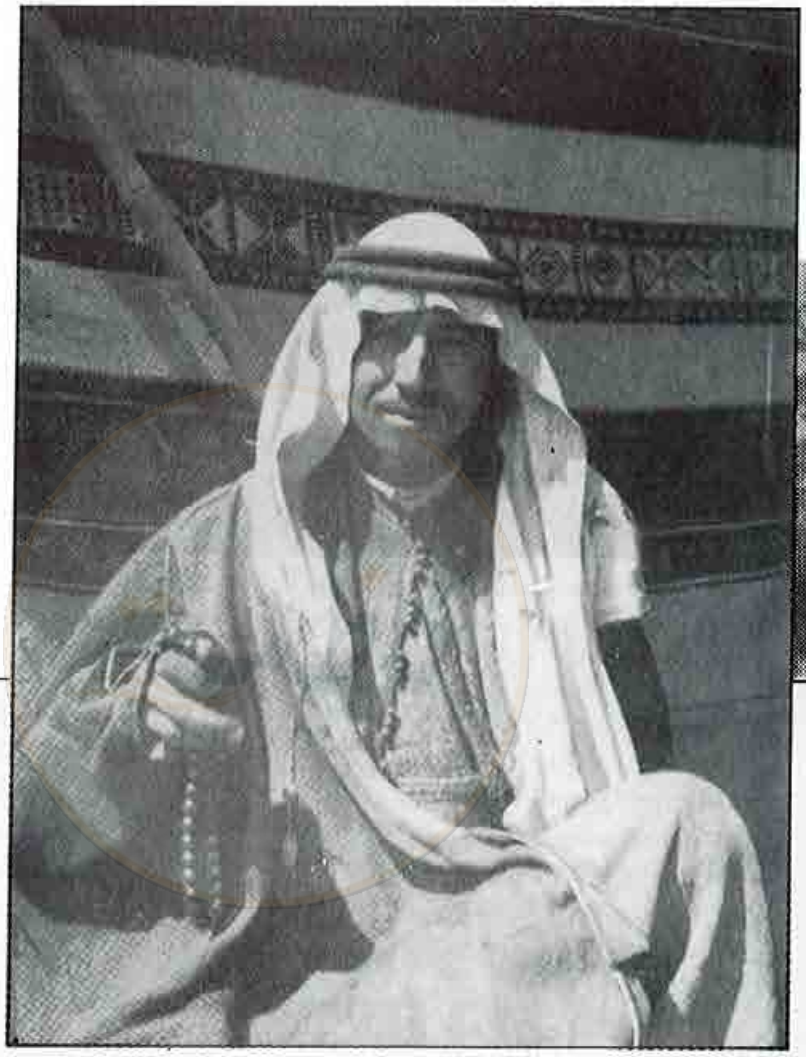

● شيخ
احدى القبائل

أبيض . كذلك عرض القطعة الأخيرة أربع عشرة بوصة نصفها الأعلى أبيض والنصف الأسفل فاتح اللون أو بني داكن .

ويتكون الرواق أيضا من أربعة شرائط قماش أفقية . وأروقة الأغنياء سوداء أو بيضاء أنيقة بينما يقتصر الفقير على أروقة عملية بنية أو سوداء عادة .

ويعتبر شعر الماعز أحسن نسيج لصناعة الخيمة فهو أسود وأكثر كثافة وأحسن منظرا من صوف الغنم . كذلك يستعمل في النسيج خليط من شعر الماعز وصوف الغنم المخلط

باللونين البني والأسود . وتقوم كل بدوية بصناعة وتجديد الأجزاء المستهلكة من خيمتها . ولكن أحسن المواد وأمتنها التي تستعمل لخيام الشيوخ يؤتي بها من المدن . وهذه المواد تشكل سلعة جيدة للتجارة في الكويت والجهراء والقصور .* يشتري البدوي خيمته بالقطاعي . ويشتري الأعمدة أولا ثم القماش ثم القواطع فالحبال والأعمدة الجانبية وأخيرا القواطع الخلفية . ويعطي القماش الى نسائه اللواتي يبدأن بحياكته تحت اشراف احدى النساء الأكبر سنا والأكثر خبرة . وتحتاج الخيمة الى مهارة وعناية فائقة حتى يتم نصبها مستقيمة فلا تتمزق حول النوارات . ** وتحاك هذه النوارات بعناية بخيط قوى من شعر الماعز .

بعد أن يتم تجميع سقف الخيمة تحاك درايج مزركشة سوداء وبيضاء عرضها ست بوصات على طول السقف لدعم الأعمدة وتخفيف الضغط عن الحبال . تثبت خشبتان في السقف لمنع تمزق الأجزاء الواقعة مباشرة فوق رؤوس الأعمدة من جراء ثقل السقف . ويوضع كل عامود تحت مركز الخشب مباشرة وبذلك لا يؤدى الى تمزق القماش . وأخيرا تثبت قطع خشبية على شكل أنصاف دوائر في نهاية القماش المزركش ، وتثبت حبال الخيمة بهذه القطع الخشبية . وهذه العملية في غاية الأهمية ويجب أن تخلو من كل ضعف . وتثبت الحبال بأوتاد خشبية في الأرض اذا كانت الأرض صلبة أما اذا كانت التربة رملية فيحفر حفرة على عمق قدمين ويربط آخر الحبل حول كومة من العرفج وتدفن في الأرض لتقوم مقام الوتد .

ويتم اختيار مكان نصب الخيمة على مقربة من الماء والمرعى . ويكون اختيار مكان التخييم من مهام الشيخ اذا هاجر البدوي مع القبيلة أو قسم منها ولكنه يعمل جاهدا لينصب خيمة عائلته على مقربة من واد رملي أو مجرى ماء حوله ربوات عالية مما يسمح لأفراد العائلة وخاصة النساء بقضاء حاجتهم الشخصية بعيدا عن الناظرين . وقرب المخيم من مصادر المياه نسبي . ففي الصيف يجب ألا تزيد المسافة بين المخيم ومصادر المياه عن نصف ميل أما في الشتاء حيث لا تحتاج الجمال الى الماء ، وتشرب الأغنام والخيول مرة واحدة كل أربعة أيام فينصب المخيم على بعد عشرين أو ثلاثين ميلا من الآبار .

وينتقل البدو بخيامهم كل ثمانية أو عشرة أيام لأسباب صحية ولتوفير مراع جديدة للجمال والأغنام ، ويقطعون عادة من عشرة الى اثنى عشر

(★) القرى الجنوبية .

(★★) النوار : شريط بعرض بوصتين تقريبا يخاط لتماسك الفلجتين .

ميلا في انتقالهم شرط أن تكون المياه متوفرة . وينقلون أمتعتهم الثقيلة على الجمال الذكور لأنها أقوى من الإناث . أما الأمتعة الخفيفة مثل مياه الشرب فتحمل على النوق ويركب أفراد العائلة الجمال ويتصدر الرجال النساء اللواتي يسافرن داخل الهودج .

وعندما يغير البدوي الذي يملك نصف دزينة من الخيام موقعه فإنه يرأس بنفسه موكب الترحال فتتبع الخيام أغنامه وجماله الحلوب إلا في حالة إرسالها مسبقا . فإذا اقترب من المكان الجديد يتقدم بفرسه ليختار موقع الخيام ويجعل جمله يركع في الموقع الجديد . أما في حالة انتقال القبيلة بكاملها من موقعها ، ينتقل أولا المقاتلون برئاسة قائدهم على ظهور النوق مع خيولهم وأفراسهم وتكون فرقة من الكشاف قد سبقتهم لتستكشف الأرض الجديدة والمرعى والماء . فإذا تبين عدم وجود خطر أو عدو قريب تتبعهم الجمال المحملة بالأمتعة ثم النساء على أقدامهن وخلفهن يأتي الرعيان والأغنام ترعى في طريقها الى أن يصل الجميع الى مخيمهم الجديد .

وتنتشر خيام القبيلة في رقعة واسعة من الأرض كل مجموعة من الخيام التابعة لعائلة واحدة تبعد ما بين ٢٠٠ الى ٤٠٠ ياردة عن جيرانها . وينجم عن هذا الانتشار قصور في القدرة الدفاعية بحيث يصعب على المقاتلين أن يتجمعوا في حالة تعرضهم لغارة فجائية ولكن لهذا الانتشار فوائده في الدفاع السلبي بحيث تصبح كل خيمة مثل قلعة صغيرة لاطلاق النار على الغزاة .

في الموقع المختار تقوم النساء بنصب الخيام يساعدهن في ذلك الخدم والعبيد وأحيانا الابن الأكبر وهذه المهمة تعتبر من صميم عمل المرأة في الحياة ، كل نفر في العائلة يعطى مهمة يقوم بها ويوجه كل هذه المهمات والأعمال رئيس العائلة . وتقوم البنات عادة بطرق الأوتاد بينما يقوم الخدم من الرجال بتثبيت الأعمدة والدعائم . ويصدر صاحب الخيمة أوامره الى النساء والخدم كما يلي :

- أفراد الخيمة
- مدوا الحبال يا أولاد
- إنت وإنت ثبتوا الحبال في الأرض
- دق الأوتاد يا ناصر ولف الحبال حولها
- حصه ! وضحى ! شدوا الحبال
- يا مرزوق يا ناصر شدوا أطراف الحبل
- حطوا (وصلوا) المجادم
- انصبوا أعمدة الوسط . (عمل الرجال)
- انصبوا الأعمدة الخلفية والجانبية
- والآن شدوا جميع الحبال مرة أخري

- ووصلوا الرواق وغطوا طرفه السفلي بالرمل
- والآن وصلوا القاطع !
- وأخيرا : افردوا السجاد والفراش وجهزوا جناح الرجال والنساء

وتنصب الخيام ويجعل أحد جوانبها الطويلة مواجها لاتجاه الريح التي تهب من الشمال الغربي (الشمالي) أو من الجنوب الشرقي (كوس) . ويكون جانب الخيمة المواجه للرياح مقفلا دائما والجانب المظلل مفتوحا . فاذا تغير اتجاه الريح فجأة ، وكثيرا ما يحدث ذلك في فصل الأمطار ، فمن الضروري تغيير اتجاه وجه الخيمة المفتوح حتى لا تنهار الخيمة . وفي هذه الحالة تهرع النساء والخدم ويلقون بالأعمدة (الأرماح) التي تدعم فتحة الخيمة ثم يفكون الستارة الخلفية لإغلاق الباب في وجه الرياح . ثم توضع الأعمدة الخيزرانية تحت أطراف السقف ، عامود تحت كل حبل . وفي النهاية تسحب القواطع وتقلب على أعقابها ثم تثبت مرة ثانية بجعل الأطراف المزركشة خارج الخيمة ، وهذه العملية بأكملها لا تستغرق سوى وقت قصير .

أما في الصيف فيطوى القاطع الخلفي أو يفك من المشابك عدة ياردات فتتهدل أطرافها على الأرض ، واذا كانت الشمس ساطعة وحارة يوضع بساط تحت السقف لتخفيف الحرارة . بينما في الجو البارد تغلق مقدمة الخيمة بسحب الأطراف المزركشة التي تتدلى من القاطع عادة الى الخارج ، الى الداخل ووصل هذه الأطراف في وسط جانب الخيمة . ثم تدار أطراف الرواق فتسيج على الأجزاء المتطرفة من الخيمة وبهذه العملية يغلق مقدمة باب الخيمة بالكامل مما يبعث الاطمئنان والدفء في نفوس أهل البيت .

بعد أن يتم نصب الخيمة تضع النساء حاجاتهن ومؤونتهن في وسط الخيمة بما في ذلك هوادج السفر وأمتعة النوم والبطانيات والطعام ويضعن في أقصى الخيمة قدور وأواني الطبخ محولات ذلك الجزء الى مطبخ . وتوضع الأمتعة الثقيلة والأكياس التي تحتوي على الأرز والطحين والتمر والملح والسكر بجانب القاطع الذي يفصل جناح النساء والرجال ، وتعلق سروج الجمال وما تبقى من الأمتعة بما في ذلك بندقية صاحب الخيمة والذخيرة . وتلف الألحفة وتوضع فوق المستودع كما توضع هوادج النساء في مكان بارز في الجانب الآخرمن الخيمة بحيث تبدو على مرأى من عابر السبيل .

ويسمى الهودج الأكثر استعمالا في شمال شرق الجزيرة العربية وحول الكويت بالمقصر، * وهو عبارة عن هودج له غطاء تستعمله النساء .

(★) المقصر : كواجهة .

ويتكون من اطار على شكل سلة مغطاة بشال صوفي ملون ، تجلس فيه المرأة وطفلها مع أمتعتها الخاصة وعلى السرج يوضع فراش المرأة . ويتدلى على الجانبين جيوب السرج . ويصنع المقصر من خشب الطرفاء وشجر الرمان ، حيث يمكن للأخير أن يثني الى أشكال دائرية . وتشترى الأجزاء من المدن وتقوم النساء بصنع هوادجهن بأنفسهن فيوصلن الأجزاء ببعضها البعض ويغطينها بجلد الغزلان ويزخرفن مقدمة ومؤخرة الهودج . وهناك أنواع أخرى من الهوادج مثل ظله وهو قمرى الشكل وتستعمله نساء السعدون (الحكام السابقون لاتحاد منتفق الفرات) ونساء عنزة والظفير خلال المواكب . وهناك أيضا (جن) وهو عبارة عن هودج مربع الشكل تستعمله نساء قبائل شمر وعنزه والظفير . أما الرولة وهم بطن من عنزه فيستعملون (المركب) ولهذا المركب اطار خشبي مغطى بريش النعام . ويعرف بسفينة اسماعيل نسبة الى سيدنا اسماعيل عليه السلام تكريما له كأول نبي بدوي عربي . وعندما تكون قبيلة عنزة في حالة حرب تركب هذا المركب ابنة الشيخ وتتقدم الى وسط حلبة القتال لتثير حماس المقاتلين ليقوموا ببطولات خارقة . وأثناء القتال يقيد الجمل الذي يحمل المركب بسلسلة بحيث لا يستطيع التقهقر أو الهرب ، فإذا انهزم الرولة يتراجع مقاتلوها الى حيث المركب فقط . وهناك يجب على جميع المقاتلين أن يتجمهروا ويقاتلوا لآخر واحد فيهم اذا دعت الحاجة دفاعا عن المركب وعن المرأة القابعة في داخله . وحتى عام ١٩٣٤م كانت قبيلة العجمان ما تزال تستعمل المركب حين تخوض الحرب وتسمية المقصر أو المكسر .

ومن بين أهم ممتلكات النساء المغازل التي يستعملنها لغزل أصواف الجمال والأغنام في أوقات الفراغ . وهذه المغازل تستعمل باستمرار سواء خلال الموكب أو على ظهر الجمل وتبدو كجزء لا يتجزأ من عمل المرأة البدوية . أما طريقة الغزل فهي كما يأتي :

تحتفظ الغازلة بالصوف تحت ذراعها الأيمن أو في صدرها وتسحب بيدها اليسرى حوالي قدمين من الصوف . وتلف وتربط آخر خيط الصوف الى الجزء الأسفل من المغزل بحيث يمر بداخل ما يشبه السنارة على رأس المغزل . واذا كانت جالسة ترفع ركبتها اليسرى وتضع طرف السنارة فوقها وتبرم المغزل بكفها بخفة وسرعة . وترفع المغزل الذي يدور بيدها اليمنى بواسطة خيط الصوف . وما أن يجهز الصوف تقوم بلف الصوف المغزول حول الكوكب . ومن الأشياء الهامة الأخرى في جناح النساء قطع الخشب التي تشكل النول عندما تلقى فوق الرمال ، وبهذه المغازل تنسج قطع قماش الخيمة .

ويقفل على الأشياء القيمة مثل المال والقهوة وحب الهيل والسكر والملح والملابس الخاصة في صندوق تنك أو صندوق صغير من الخشب ، وتحتفظ المرأة بمفتاح الصندوق فتربطه بجزء من غطاء رأسها أو ملفعتها . وقد يوجد في جناح النساء أيضا (حبابه) وهي مرجيحة الطفل الصغير تنصب بين عامودين داخل الخيمة . وتحمل النساء أطفالهن عند الخروج على أكتافهن أو أوراكهن ، وفي الحسا في مهد يسمى (مزبع) تحمل المرأة طفلها على ظهرها .

وتوجد خارج جناح النساء قرب الماء التي توضع فوق شجرة العرفج الذي يحتفظ بالماء باردا . وبالقرب من ذلك يوجد جردل جلدي صغير وحبل لسحب الماء من الآبار كذلك يوجد حوض جلدي مثبت على ثلاثة أرجل خشبية تشرب منه الجمال والغنم . كذلك يوجد مرجل (شناقه) تعلق عليه قربة خض اللبن ويستعمل هذا المرجل أيضا لتعليق الخروف المذبوح عند سلخ جلده .

ويحتل جناح الرجال - في شرق وشمال الجزيرة العربية - الطرف الشرقي من الخيمة ، ويفرش في هذا الجناح سجادة أو سجادتان وفراش للجلوس وسرج جمل صاحب البيت مغطى بجلد الغنم الأبيض أو الأسود . ويتحول هذا الجناح الى غرفة نظيفة للضيوف عند حلولهم . ويجلس الضيف على الفرشة ويتكيء بكوعه على السرج . وتوضع المساند فوق الفراش ، كل اثنتين توضعان كفواصل بين الضيوف لتوفير متكأ لكل جالس . وتجدر الملاحظة أن البدوي يجلس متربعا أثناء سرده لأى قصة ويجثو على ركبته اليسرى . وعندما يغسل يديه يجلس القرفصاء وركبتاه متباعدتان . ويعلق رب البيت بندقيته على مشبك مربوط بعامود الخيمة ويجهز موقدا يحفره في الوسط على شكل دائرة لعمل القهوة . ثم يضع بجانب الموقد فناجين القهوة مع بقية العدة والبخور . وبذلك يكون المكان مهيأ لاستقبال الضيف فلا يبقى سوى احضار القهوة وحب الهيل والماء والوقود عند رؤية الضيف قادما .

ويصنع الرجال السروج من خشب الطرفاء بأنفسهم . ويزخرف (قربوس) مؤخرة السرج بالرصاص المصقول مما يعطيه منظرا فضيا . ويحفظ البدوي بندقيته في جراب من الجلد مزخرف (مزركش) بأهداب جلدية عند فوهة البندقية ويملك البدوي الى جانب البندقية خنجرا (خوسا) حادا من جهة واحدة فقط يستعمله دفاعا عن النفس أو لذبح الغزلان أو الغنم أو الجمال . كذلك يملك ما يماثل الخنجر يسمى (حريدي) يستعمله لذبح طيور الصيد . ويثبت الخنجر بإبزيم داخل الجفت والحريدي داخل كتف الجفت .

الشرف.. والضيافة

يعتبر الضيف ، عند العرب عامة وبدو الصحراء خاصة ، شخصا مقدسا جدا ويقتضي عرف الضيافة بأن يكرم هذا الضيف ويقدم له الطعام والشراب ويعامل معاملة لائقة حتى ولو كان غريبا أو من قبيلة غريبة .

ولا ينتظر من الضيف أن يفرض وجوده أو يستغل هذا العرف الا اذا كان فعلا بحاجة الى الطعام والراحة . فمثلا بعد يوم طويل من السفر يبحث المسافر عن خيمة يقضي بها ليلته فإذا ما أبصر واحدة يسمح له العرف بالذهاب اليها وطلب الطعام والمأوى . أما اذا كان على بعد ميل أو اثنين من مقصده فعليه أن يعمل جاهدا للوصول اليه بدلا من أن يفرض نفسه على غرباء قد يكونون أفقر حالا منه .

وعلى الغريب أن يتقدم الى الخيمة من بابها الأمامي حتى لا يتعرض للنساء اللواتي قد يكن مكشوفات أو يغسلن شعورهن أو يغسلن أواني الأكل وعليه الا يجعل جمله يبرك قرب جناح النساء ، وانما على بعد مسافة بحيث يعطى النساء الفرصة لإسدال حجابهن ولباسهن . عند ذلك يخرج صاحب الخيمة فيدعو المسافر أو يبعث خادمه حسب ما يقتضيه وضع الزائر الاجتماعي والذي يبدو من خلال عدد وشكل حاشيته .

واذا كان صاحب الخيمة غير موجود فتخرج زوجته حاملة قدرا من الحليب تقدمه للمسافر أما اذا بدا لها أن العابر شيخ أو من قبيل ذلك تلوح بأحسن ثيابها علامة على ترحابها . كذلك عند عودة زوجها أو ابنها من رحلة طويلة أو من الغوص عن اللؤلؤ تعلق المرأة أحسن اثوابها وأكثرها رونقا وزخرفا فوق عامود أمام باب الخيمة . وتعلق نساء المدن في

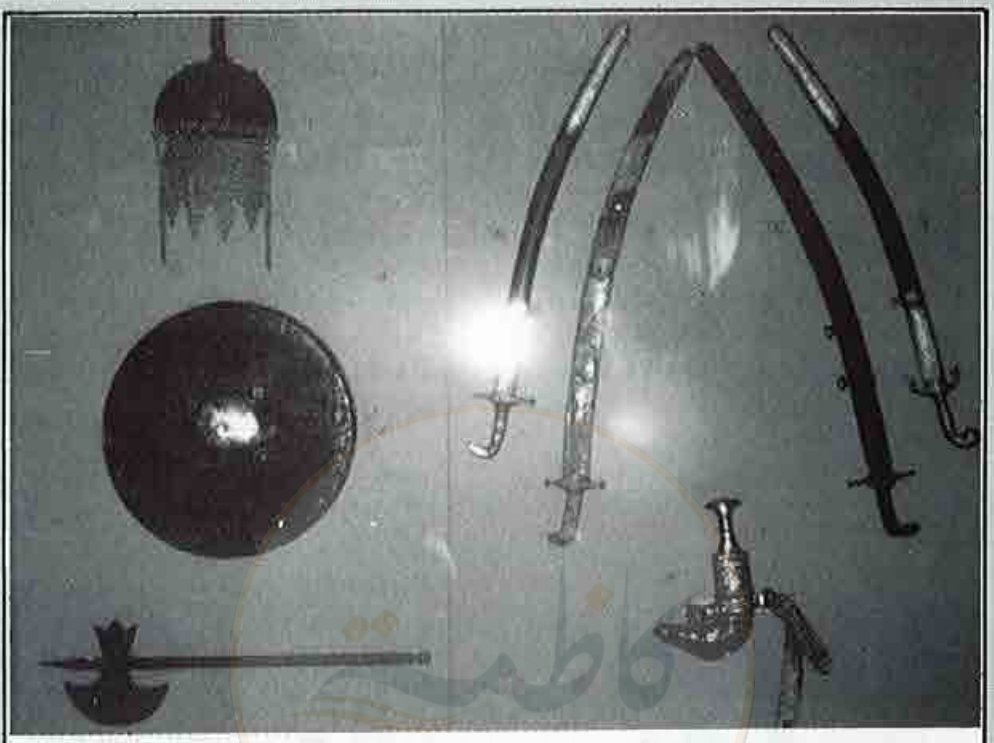

هذه المناسبة أحسن أثوابهن فوق سطح المنزل على مرأى من الجميع .

اذا كان رب البيت موجوداً يقوم بنفسه باستقبال الضيف والترحيب به ويرد الضيف التحية بمثلها بدون الاشارة الى زوجة المضيف أو أى من نساء بيته وخاصة اذا كان لا يعرف العائلة . ومن جهة أخرى لا تقترب النساء من الضيف ولا يحاولن مخاطبته الا اذا مضى على وجوده يومان أو ثلاثة عندها يزول التحفظ نسبيا فيخاطبنه (بالأخ) ثم يؤخذ الضيف الى جناح الضيوف وتقدم له القهوة والطعام وفراش النوم . وعندما يخيم البدو فرادى فإنهم يحاولون بذلك اخفاء خيامهم عن الأنظار حتى لا يكشفهم العدو من ناحية ، ولكي لا يراهم مسافر فيفرض عليهم تلك الالتزامات الضيافية .

ويعتبر عمل القهوة للضيوف المهمة الوحيدة والهامة التي يقوم بها الرجل بنفسه ، سواء أكان الضيف قريبا أو غريبا ، وفي حالة الأمير أو الشيخ فيقوم بعمل القهوة بدلا منه خادم أو شخص موثوق به .

دعونا نتخيل بأننا قد وصلنا الآن الى بيت بدوي ميسور الحال . يعمل القهوة بنفسه . بعدأن برك جملنا على بعد من جناح النساء يقوم المضيف بالترحيب بنا واجلاسنا في جناح الرجال . تنتشر قطع السجاد الأنيق على الجانبين ونتكيء نحن على سروج الجمال التي وضعت بجانب القاطع الذي يفصل جناح النساء ، أو نجلس متربعين بانتظار حفلة القهوة ، في

نفس الوقت نستمع الى عبارات الترحيب التي تصدر عن مضيفنا (يا هلا .. طال عمرك .. حياك الله .. يا هلا ..) يتخللها نداءاته الموجهة الى رجاله في الخيمة لإحضار الروث المجفف وقطع الخشب لموقد النار والماء من الأوعية الجلدية قرب طرف جناح النساء . وفي الوقت الذي يصدر فيه أوامره بصورة سريعة ومتقطعة يجلس قبالة ضيوفه ويمطرهم بالتحيات والسؤال عن صحتهم ، ثم يقوم فينظف موقد النار في جناح الضيوف ويبدأ بملئه بالوقود .

والآن يجلس مضيفنا ويبدأ بالتركيز على عمله ويلاحظ بأنه لا يسألنا عن أعمالنا ولا من أين أتينا والى أين نحن قاصدون ، لأن في ذلك قلة أدب وعلى الضيوف أن يقوموا بإخباره إن هم أرادوا ذلك .

ويوجد الى جانب الموقد أربع (دلال) أباريق قهوة ذات أحجام مختلفة . ثلاثة منها قد اسوّد لونها من جراء اقترابها من النار والرابع (الذي تصب منه القهوة للضيوف) يظل براقا ولامعا . يضع مضيفنا هذه الأباريق صفا واحدا بجانب الموقد ويبدأ بإشعال النار . ثم يأخذ حبوب القهوة من كيس جلد الغزال المزركش ويجهز المحمصة والابريق الذي يحمص فيه القهوة ويد المحمصة التي يحرك بها القهوة . ثم يضع بجانبه وعاء الفناجين وهو صندوق نحاسي أسطواني الشكل تحفظ به فناجين القهوة أثناء السفر ، والهاون المصنوع من النحاس ، والمبرد وهو الطبق الذي يستعمل لتبريد القهوة بعد تحميصها ، والمخبط (خشبة لتحريك القهوة أثناء التحميص) ، وليفة (سعف من النخل أو القنب) يستعمل كمصفاة وأخيرا البخور .

وعندما يخمد لهب النار يملأ مضيفنا المحمصة بحبوب القهوة ويحملها بواسطة يدها الطويلة فوق النار وأحيانا يضعها فوق مقعد معدني من ثلاثة أرجل بحيث لا تلمس الجمر في الموقد . وعندما يصير لون القهوة بنيا يحركها باستمرار حتى لا تحترق ، بعد ذلك يضعها في المبرّد الخشبي لتبرد ثم يصب من الابريق الثاني (الخمرة) في القدر الثالث (وهي قهوة اليوم السابق التي أضيف عليها قليل من الماء) . يملأ القدر الثالث بالماء البارد يوضع فوق النار وما أن تبدأ (الخمرة) بالسخونة حتى تصب حبوب القهوة في الهاون وتبدأ أحب الموسيقى الى البدوي في العزف وهي صوت الهاون والمهباش (يد الهاون) . ويعتبر كل عربي خبيرا بطحن القهوة والتفنن في ايقاعات المهابش والهاون . وبعد عدة ضربات يهز مضيفنا المهباش من جانب الى آخر داخل الهاون لإنزال القهوة العالقة به في الوقت الذي تؤدي هذه الحركة الى قعقعة متقطعة . وقد تؤدي هذه الموسيقى (الايقاعات) الى قدوم مجموعة كبيرة من الأقرباء والجيران .

يستغرق طحن القهوة من خمس الى سبع دقائق تقريبا وما أن تغلي (الخمرة) حتى يقوم المضيف بصب القهوة المطحونة في ابريق القهوة بعناية بالغة ويحركها باستمرار بواسطة المخبط ويضعها فوق النار ثم يرفعها عن النار كلما أصبحت على وشك الطفو . وبعد أن تأخذ حاجتها من الغليان يرفعها عن النار ويهمس من فوق القاطع الى نسائه لمناولته حب الهيل . وترتفع يد صغيرة من فوق الستارة ببعض حبوب الهيل الثمينة ، فيضعها بالهاون ويسحقها قليلا ثم يضيفها الى القهوة .

ترفع القهوة من على النار ثم تحضر (الدّلة) الابريق المتألق اللامع . يرفع غطاء الدّلة ثم تصب فيها القهوة ، ثم تصب مرة ثانية في الدّلة السوداء الكبيرة ، ومرة أخرى بعد عدة ثوان تصب في الابريق اللامع . وتوضع الليفة في طرف (بزباز) الابريق . وفي نفس الوقت تؤخذ ثلاثة أو أربعة فناجين من وعائها وتغسل بالماء البارد ثم يتناولها المضيف بيده اليمنى وابريق القهوة في يده اليسرى . ويقوم بصب قليل من القهوة لنفسه ويشربه وهو تقليد يؤكد خلوها من السم . ثم يقوم بصب بعض القهوة يكفي لبضع رشفات في فنجان أهم ضيف ثم يدور ببقية الضيوف يقدم لهم القهوة . وعندما ينتهي أول الشاربين من قهوته ، يأخذ المضيف الفنجان ليقدم فيه القهوة مرة أخرى ، بدون غسله ، ثم تتكرر نفس العملية حتى يكتفوا . والسلوك المهذب عادة يمنع الضيوف من شرب القهوة أكثر من ثلاثة أقداح من القهوة . ولكن اذا كان الضيف ذا مكانة خاصة يلح عليه بتناول قدح رابع وخامس . ويمسك العربي بالقدح بين إبهام وسبابة اليد اليمنى عندما يريد الاشارة الى تناول كفايته من القهوة يهز الفنجان الخالي هزات سريعة متلاحقة .

وعندما ينتهون من تناول القهوة يتحدثون لفترة ما ويتبادلون عبارات الترحيب ثم تقدم القهوة مرة أخرى . واذا لم يكن الضيوف مدعوين للطعام أو لقضاء الليلة ، فانهم يستعدون للرحيل . وقبل ذهابهم يرسل أحد أهل الدار الى خباء النساء لإحضار بعض البخور . وفي المبخر توضع (الجلة)روث الجمل المشتعل وفوقه البخور . ومن حين لآخر يتصاعد دخان معطر زكي ويمرر المضيف المبخر قريبا من أنوف ضيوفه وعند أطراف كوفياتهم أو في طيات عباءاتهم . ثم يرحل الضيوف في صمت .

وفي المدن تلاحظ مراسم مشابهة . ففي الكويت عندما يمر زائر عابر بمجلس الصباح لدى شيخ أو تاجر معروف يقدم له قدح من القهوة عند حضوره وآخر بعض عشر دقائق يتبعه المبخر . وفي مثل هذه الجلسات يتوقع انصراف الضيف عند هذه النقطة . والقول (ما بعد العود قعود) مثل بدوى شائع . وفي أقاليم شمال الجزيرة العربية وفي مصر تقدم القهوة التركية المحلاة المخلوطة بالثفل وعلى سطحها طبقة من الرغوة . ويقوم بإعدادها أحد الخدم في المطبخ بعيدا عن الأنظار .

ومن البدو من تستمر زيارتهم أكثر من عشر دقائق ـ ويتوقع أن يتناول الطعام أو قضاء الليلة ـ وتقدم القهوة على فترات متفاوته كل ربع ساعة تقريبا . وعندما يحين موعد الطعام ، اذا كان الضيف هاما والمضيف من الموسرين نوعا ما ، تذبح شاة وتطهي مع الأرز المخلوط بالزبيب واللوز وحلقات البصل . ويقدم كل هذا فوق صوان مطروقة نحاسية كبيرة ومستديرة (واذا كان المضيف يستحسن عادات وسلوك أهل نجد ، يثبت قاعدة منخفضة أسفل الصينية) توضع فوق حصيرة مستديرة . ويكوم الأرز المطبوخ فوق الصينية ويغطى بالصلصلة الصفراء المصنوعة من دهن الغنم . ويعلو ذلك خروف أو شاة صغيرة مسلوقة ، وعادة ما تكون ذكرا . ويطهى الأرز واللحم بطريقة بسيطة مع كمية كبيرة من الزبد المصفى (السمن) وعادة ما يكون اللحم عسير المضغ إلا اذا كان الخروف صغيراً . وأطيب قطع اللحم

وأرقها هي الشرائح الموجودة على جانبي العمود الفقرى وأجزاء الكتفين وأجزاء الفخد قرب مفصل الأرجل ، واللسان ، والكليتين وجانبا الفم والعينين كذلك من الأجزاء الشهية المعروفة . ويعتبر شحم الذيل من نصيب الضيف دائما الى جانب طبق اللحم والأرز يضع المضيف سلطانيتين أو ثلاثا من اللبن الذي يطفو فوق سطحه قطع من الزبد ، وكذلك صحنا أو اثنين من التمر .

وبعد تناول الطعام تقدم القهوة وهي بالنسبة للبدو مشروب عادي يصنع مع كمية كبيرة من حب الهيل . ومن آداب السلوك شكر المضيف بعد الغذاء مع مدح الطعام ومهارة ربة البيت في طهوه . ولا يأكل المضيف مع ضيوفه بل يتناول طعامه فيما بعد مع باقي أفراد الأسرة . واذا كان الضيف شخصية هامة فمن اللائق أن يترك عند رحيله هدية من الأرز والقهوة أو السكر لأهل الخيمة . واذا أراد أن يظفر بثناء أكثر فإنه يجلب معه أقمشة تكفي لصنع ستة أثواب لنساء الخيمة .

واذا كان الضيف بدويا فقيرا يقدم له عشاء مكون من الأرز المطهو بدون لحم مع بعض التمر واللبن . واذا كان هذا المضيف فقيرا فإنه يستقبل المسافر ويبذل أقصى جهده لاستضافته حتى ولو كان لا يستطيع تقديم إلا بعض التمر فقط .

ولا يقدم البخور أبدا إلا من قبل أصحاب الخيام المجهزة بكل الأدوات ، في هذه الحالة يقدم بعد تناول الطعام والقهوة . وبعض القبائل وخاصة قبائل المنتفق على شواطىء نهر الفرات ، يدققون كثيرا في اتباع تقاليد الضيافة لدرجة أنهم قد يجلبون الخراب لأنفسهم حتى لا يقال أنهم بخلوا بشيء على ضيوفهم . فقد يمتلك الرجل شاة واحدة ولكنه يذبحها راضيا لإطعام ضيف غريب . وأولاد واصل في فرع (البرية) من قبيلة مطير لهم شهرة مماثلة في اكرام الضيوف ولهذا يحظون بكثير من الإحترام .

ومن العادات التي تتبعها بعض القبائل ، وخاصة الظفير ، وغالبا ما تزعج الجالسين لتناول الطعام . أنه عندما يجلس جماعة من الرجال لتناول العشاء ، اذا شبع أحدهم ونهض مكتفيا ، يجب على بقية الجماعة النهوض أيضا وغسل أيديهم دلالة إنتهائهم من تناول الطعام . ولتجنب ترك المائدة قبل تناول الكفاية من الطعام تكون النتيجة أن الضيوف يزدردون الطعام بطريقة مؤذية .

والمشروبات المفضلة بين أصحاب قطعان الغنم هي اللبن والروبة (اللبن السميك المخثر) . والقبائل التي تملك الإبل يستطيعون عمل اللبن من حليب الناقة ، ولكنهم غالبا ما يقدمون حليب الناقة للضيف . اذ أنه لا يحتوي على قشدة ولهذا لا ينتج عنه زبد ، وهو مسهل بعض الشيء ولهذا يستحسن تناوله بكميات قليلة .

وحفلات العشاء التي يقيمها سكان المدن أو العرب الأكثر ثراء ، هي مناسبة افخم مما سبق ذكره ويجهز الأرز بالطريقة المعروفة لأهل العراق وشمال ايران . فبعد سلقه يحمر الخروف بأكمله وذلك بتقليبه في السمن أو الدهن الحار . ويمكن شيّه في فرن الخباز وهذا ما يعرف باللحم المشوي ويوضع فوق الأرز طبقة رقيقة من الزبيب الحار ، والبصل المبشور المحمّر ، والحمص وتوابل

أخرى . وغالبا ما يقدم حب الرمان المجفف المبشور الذي يشبه البرغل . ويحاط كل ذلك بأطباق ، أو سلطانيات صغيرة ، مملوءة بأنواع أخرى من اللحم ، والخضراوات ، والفواكه (وعادة ما تتكون من شرائح البطيخ) . ويتصاعد عدد الأطباق مع أهمية وثراء المضيف . وفيما يلي أهم الأطباق التي تقدم :

المـــرق : شهيـة بنية اللـون مصنوعة من قطع صغيرة من اللحم والطماطم والباذنجان والبامية .

مرق الطماطم : مثل المرق السابق ويطبخ من صلصلة الطماطم والبصل .

شيـخ المحشي : قرع أبيض صغير ، أو يفضل الخيار الكبير الحجم المحشى بالأرز واللوز واللحم المفروم .

الدولمة أو البراغ : أرز مجروش ولحم ملفوف بورق العنب ، ويطهي بعناية .

الدولمة : بصل ملفوف أو ورق عنب كالسابق .

كبـــاب : خليط مفـروم من اللحم ، والأرز والزبيب . لذيذ الطعم والرائحة .

محلبية (مهلبية) : أرز مطحون أو نشا يطهي بالحليب ويجمل طعمه بحب الهيل وأحيانا بالفستق المفروم .

المهلبية والزعفران : كالخليط السابق ويمزج معه الزعفران ليصفر لونه .

الهـريس : نـوع من القمـح المجروش وثريد اللحم .

ويقدم مع كل هذه الأطباق صحون من التمر ، وسلاطين من اللبن ، والعنب وشرائح من البطيخ الأصفر أو الأحمر (في موسمها) مع رقائق كبيرة رفيعة مستوية من الخبز بدون خميرة ، أو خبز سميك مستدير مستوي يخبز في الأفران شائع جدا في الشرق . وكذلك أطباق مختلفة الألوان من الحلوى الرجراجة (الجيلي) .

والضيف الذي يبحث عن مكان للراحة عادة مايمكث ليلة واحدة ثم يرحل في الصباح الباكر . وهذا النوع من الإستضافة في الصحراء يحدث يوميا . ولا يجرؤ الضيف على محاولة دفع أي نقود ، اذ لن تقبل محاولة كهذه ، وعندما يزور شيخ أو رجل ذو سعة (ميسور الحال) خيمة رجل فقير فمن المتوقع أن يكافيء مضيفه بهدية نقدية أو منحة من الأقمشة عند رحيله أو عند وصوله الى داره . وثلاثة أيام هي الحد الأقصى لبقاء ضيف في ضيافة صاحب الخيمة . وإذا مكث ، مدة أطول فمن حق المضيف أن يسأله عن وجهته وأن يطلب منه المساعدة ويكلفه بعمل أي شيء . وعادة ما يكون هذا التلميح كافيا وينطلق الضيف المتقاعس في طريقه .

والملوك ، والأمراء العظام والشيوخ ذوو الشأن في الصحراء يلحون على ضيوفهم المبجلين في البقاء والتمتع بضيافتهم لمدة تصل الى عشرة أيام ، ولكن بعد ذلك يستأذن الضيف في الرحيل . وعنـدئذ يتبـادل الطرفـان الهدايا . وأتذكر في المناسبتين اللتين زرت فيهما الملك ابن سعود مع سير بيرسي كوكس (وكان في ذلك الوقت المندوب السامي في العراق) أن قام سير بيرسي عند رحيلنا بدفع مبلغ ٦٠٠ روبية هبة لخدم الملك واتباعه ، بينما تسلم هو وجماعته من الأوروبيين فرسا وزيا عربيا كاملا لكل منهم ونال كل خادم عباءة وكوفية وعقالا . وفي يناير عام ١٩٣٦م قام بتوزيع ٣٠٠ زبون ، عندما زار ابن

سعود الكويت ، (وهي جبة من القماش الراقي) وعباءة على أتباع الشيخ ، واعطى مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ روبية كهدايا لمن يستحقونها ، ووزع بنفسه ١٠,٠٠٠ روبية على الفقراء ، وفيما بعد أتبع ذلك بإحدى عشرة سيارة هدايا لأقارب الشيخ . وقام الشيخ من جانبه بتوزيع ٩٥,٠٠٠ روبية ، منها ٢٥,٠٠٠ روبية لأبناء الملك ، وكذلك ٧٥٠ زبونا وعباءات لأتباعه . وتقديم الهدايا من جانب المضيف لضيفه هو امتياز خاص للمضيف إذا كان ذا شأن وضيفه فقيرا . وأي شيخ بدوي يأتي لزيارة الملك أو الأمير أو شيخ رفيع المكانة يتوقع استقبال هدية قبل رحيله ، تقديرا للرحلة البعيدة التي قام بها لتقديم ولائه وابلاغ (نقل) المعلومات .

وعادة الضيافة يمتد مغزاها وراء التقديم الفورى للطعام والمأوى ، فإن مجرد تناول الطعام والقهوة مع الضيف يعطيه الحماية والأمان من قبل مضيفه وحتى من اقربائه وقبيلته . وهذه الحماية تستمر ثلاثة أيام ، إذمن المعتقد أن ملح طعام المضيف يبقى في معدة الضيف خلال تلك الفترة . وبالمثل فإن الضيف ملزم بأن لا يصيب المضيف ضرر من جهة قبيلة الضيف . وقد سمعت عن رجل قدم ، خلال رحلته ، الى خيمة رجل من قبيلة أخرى وقضى الليلة هناك . وفي اليوم الثالث هاجمت جماعة من قبيلة الضيف خيمة المضيف واستولوا على خمسة جمال وفرس . وكان للمضيف حق عادل على الضيف فاستطاع استرجاع حيواناته بفضل تدخل الضيف . وفي مثل هذه الحالة لابد أن يقوم الضيف بتلك الإعادة (التعويض) ليس ذلك فقط ولكنه سيجد القبيلة بأكملها في صفه إذا كان من الضروري إرغام المغيرين الذين سرقوا الإبل . وبالإضافة إلى ذلك يعطي المضيف جملا أو اثنين إضافيين كتعزية (تعويض) عن خرق عهد الضيافة .

ويمكن مقارنة قوانين الضيافة بالقوانين الخاصة (بالرفيق) وهو رجل واجبه أن يقودك سالما عبر أرض القبيلة ، وحتى إذا كانت قبيلته على عداء مع قبيلتك أو أهلك ، وفي تلك الحالة يكون شرف القبيلة كلها في الميزان (في خطر) وليس شرف ساكن الخيمة فقط .

فمثلا إذا أراد رجل السفر من الكويت الى الحجاز فإنه عادة ما يختار (رفاقه)من المطير ، حرب ، عتيبة ، قحطان أو بعض القبائل المحلية لكي يقودوه عبر أراضي تلك القبائل التي تقع على الطريق . و(الرفيق) عادة ما يستأجر مقابل أجر بسيط وعندما يمر بك عبر أراضي قبيلته عليك أن تجد (رفيقا) آخر من القبيلة التي ستمر بأراضيها . وإذا تركك في تلك الأرض الغريبة يمكنك الحصول على تعويض وافر من الرجل وشيخ قبيلته إذا استطعت إثبات دعواك .

وإذا لم يستطع (الرفيق) لأي سبب من الأسباب مرافقة عميله فيكفي أن يعطيه عصاه ويحفر عليها العلامة المميزة (الخاصة) لقبيلته أو لبطن القبيلة المباشر . وعندما يعطي (الرفيق) عصاه للمسافر فإنه يخبر الجميع بأنه أعطى فلانا عصاه المميزة كضمان له . ولا أحد يجرؤ على المساس بالمسافر خلال مروره أو تواجده في (الديرة) التي تسكنها قبيلة (الرفيق) .

والقوانين المتعلقة (بالقصير) ، جيران خيمة الفرد ، لها مكانة أكثر تقديسا واحتراما من أى عادة أخرى تتصل

بشرف العربي ، بدون استثناء .

وبالتحديد ، فإن ساكن الخيمة هو (قصيرك) إذا نصب خيمته على مرمى (العصا) البعد الذي يمكنك وصوله إذا ألقيت عصاك أو مهمازك (عصاة جملك) . وقد أراني مدرب صقور الرشيدي في عريفجان في عام ١٩٣٢م المدى البعيد الذي يمكن أن تصل إليه تلك العصي إذا ألقاها رجل قوي ، ويقضي ذلك بأن من ينصب خيمته على ذلك البعد من بدوي آخر يصبح في واقع الأمر جارا له ويتمتع بإمتيازات (القصير) . والقصير في حماية الله ، وقد كتبت قصائد وحكايات كثيرة منذ قديم العصور عن الحقوق المقدسة (للقصير) ، وعن الطريقة التي يجب على العربي الشريف أن يعامل بها جاره .

وغالبا ما يعسكر أفراد نفس القبيلة معا وتربطهم صلات القرابة لمساندة بعضهم بعضا في جميع الأحوال ، ولكن قوانين (القصير) تنطبق بصفة خاصة عندما يأتي فرد من قبيلة غريبة ، وأحيانا معادية ، ويطلب السماح له بنصب خيمته قريبا من خيمة شخص آخر ، وينضم الى تلك القبيلة في ترحالهم . وإذا أجيب طلبه ، وهو عادة لا يرفض أبدا ، تسري عليه تلك الحقوق فورا ، رغم أنه يفضل أن يقوم (القصير) ، إذا إستطاع مقابلة شيخ قبيلة حاميه ، بذبح جمل ويدعو الشيخ إلى وليمة عامة . وعندئذ يضمن الشيخ أن الجميع يعرفون أن الغريب صار في حماية القبيلة .

ويصبح جار الخيمة ضيفا على ذلك البدوي الذي سمح له أن يعسكر قريبا منه ويصبح (قصيره) . ويتمتع بإمتيازات خاصة ولا يخضع لقواعد وتعليمات قبيلة حاميه . ويجب على البدوي حماية (القصير) ضد جميع المهاجمين وبالمقابل فإن على (القصير) حماية وصيه ضد المغيرين حتى ولو كانوا من نفس القبيلة .

وإذا سرق حيوان او أى شيء من خيمة (القصير) واشتكى إلى حاميه ، فيجب على حاميه إما أن يستعيد ما سرق أو يعوضه عنه . وكذلك إذا هاجم المغيرون (قصيرا) واستولوا على إبله وأفراسه ، فيجب على حاميه أن يعوضه عنها من الغنائم التي يسلبها في غارته القادمة الناجحة . وإذا سرق لصوص الإبل جمالا من قبيلة مجاورة ، فلابد أن ينضم الوصي بنفسه في البحث واكتراء الرجال على حسابه الخاص للبحث عنها .

وإذا كانت هناك شكاوى ضد (القصير) فيفضل بحثها عن طريق الشخص الوصي عليه . ويقول الوصي (قاضيني ولكن لا تقاضي قصيري) فإنني أحل محله . وإذا قام (القصير) بقتل رجل من قبيلة حاميه وطلب منه المساعدة ، فلابد أن يساعده الوصي ويسعي في هربه الي بر الأمان ، حتى ولو اضطر الى الإستعانة بأفراد عائلته لهذا الغرض . وإذا قرر (القصير) دفع الفدية (فدية القتيل) فيجب أن يقوم الوصي بحمايته حتى تتم المفاوضات .

وإذا نشبت الحرب بين قبيلتي (القصير) ووصيه ونهبت الإبل من كلا الجانبين فهم في حل من إعادة الإبل إلا إذا صرح كلاهما علانية أمام شيخيهما بأنهما سيقومان بتعويض أى خسائر تقع على الطرف الآخر . عندئذ تقوم القبيلة المغيرة والتي استولت على جمال أو خيول من الطرف الأخر برد تلك الأسلاب إذا طلب منها ذلك . وإذا كان في خدمة الوصي بدوي غريب يرعى له إبله وغنمه وظهر

بعض من قبيلة ذلك الراعي واستولوا على القطيع ، فيجب على المغيرين إعطاء ثلاثة من النوق لرجال قبيلتهم ، واحدة للركوب وإثنتين لإدرار الحليب .

وبعض قبائل الصحراء ، وخاصة الظفير ، يفخرون بالشهرة التي اكتسبوها لحماية جيران خيامهم . وقد سمع جدعان السويط، شيخ الظفير ، أن أحد رجال قبيلته أطلق النار وتسبب في جرح رجل من قبيلة المطير وكان هذا الرجل (قصير) الشيخ في ذلك الوقت . وأمر الشيخ جدعان بإحضار المعتدى أمامه وقام بنفسه بالإطاحة برقبته بسيفه . وانتشرت أخبار هذه الحادثةبين البدو ، وأصبح جدعان حامي الشرف البدوي مشهورا كشهرة سلفه ، حمود بن سويط . فقبل أن يصبح حمود شيخا ، قام بقتل ابن عمه إرضاء لشرف القبيلة عندما هدد عمه على الملأ بخوزقة نفسه وذلك بالجلوس على سيفه إلا إذا أحضر ابنه أمامه وقتل بحضوره وذلك لقتله (قصيره) في عراك أحمق ! .

وذات مرة ، عندما كنت في الكويت ، كانت تسكن المنزل المجاور لمنزلي مطلقة تاجر لؤلؤ مشهور وابنتها التي تبلغ من العمر الخامسة عشرة . وقد طلب ابن عم لها الزواج منها ولكن الأم صممت على الرفض إلا إذا أعطيت مالا كافيا يمكنها من العيش بمفردها . واشتكى ابن العم لشيخ الكويت الذي قرر أن الشاب على حق وأرسل حرسه عدة مرات لإحضار الفتاة من منزلها ولكن في كل مرة كانت جارتي ترفض السماح لهم بالدخول .

وفي ليلة من ليالي يوليو الحارة كنت نائما فوق سطح داري الذي كان يطل على منزل جارتي . ولم تكن تنام فوق سطح دارها أبدا . وكانت الليلة لا يضيئها قمر ، وقرب منتصف الليل تقريبا استيقظت على صوت جارتي الذي انطلق في الظلام يناديني (أبا سعود ، يا أبا سعود) ، (استقيظ واسمع) . وأفقت من نومي تماما حينما ادركت أن هناك من يكلمني في صوت هامس عبر سطح جارتي على بعد خطوات . (ماذا حدث ؟) سألت محدثي (من هذا الذي أيقظني في منتصف الليل ؟) أجاب الصوت (أنا قصيرك ، وأناشدك أن تستمع الى .) . الآن عرفت من المتحدث الي عبر الجدار وسرعان ما ألمت بالقصة كلها . وفي النهاية قالت جارتي (آه يا أبا سعود إنني في كرب شديد ، أتوسل إليك أن تساعدني ، إنني قصيرتك ، جارتك .) سألتها ماذا تريدينني أن أفعل ؟) أجابت : (أن تذهب في الصباح وتخبر الشيخ أحمد عن توسلاتي ، دافع عني وعن ابنتي ، إذ لو أخذوها فإنني سأموت حتما . ولم تفد كل حججي بأنها ليست في حمايتي وليس ذلك من اختصاصي . وأجابت : (لا أعرف شيئا عن ذلك . كل ما أعرف أنك جاري .. والقانون يحتم عليك أن تهب لمساعدتي .)

وأخيرا وعدتها بأن أفعل ما أرادت ، وذهبت الى الحاكم ، معتذرا عن تدخلي فيما ليس من شأني ، ولكن بتوضيح أن المرأة طلبت أن تكون (قصيرتي) ، ابتهج الشيخ بدفاعي عن أحد رعيته المسلمين ضد قراره ، وقد تأثر بالطريقة التي احترمت بها إحدى نساء دياره والغي الأمر الصادر سابقا واعاد الإبنة الى أمها .

(الدخالة) هو قانون الدخول في حماية شخص ما متوسلا . وهذا القانون المقدس من عادات العرب ينتشر في الجزيرة العربية كلها والعراق ويقابل

بأقوى الإستجابة بين البدو ، وتعارضه القبائل المستوطنة أهالي المدن والعربي يطلب (الدخالة) بقوله : (أنا متوسل بك ، وأدخل في عفو الله وعفوك) . ويجب على الشخص الموجه إليه التوسل أن يحمي الشخص المستجير به ويقاتل من أجله ويبلغ به بر الأمان .

وإذا طورد شخص لإرتكابه جريمة فباستطاعته دخول خيمة (أو منزل) ويستجير (الدخالة .) . وعلى مالك الخيمة ليس فقط ضمان الحماية ولكن أيضا ، بعد إطعام الزائر وكسائه ، أن يأخذه الى المنزل أو الخيمة أو القبيلة حيث يعتقد المستجير أنه سيكون بمأمن فيها . وعند ذلك تنتهي مسؤولية الوصي .

وقانون (الدخالة) صارم جدا بين البدو لدرجة أن باستطاعة شخص يحمل عصا مميزة بعلامة الشيخ الذي احتمي به المرور بأمان في طول وعرض أراضي القبيلة ، رغم وجود أعداء له بينهم .

وقانون (الدخالة) يختلف في تفاصيله بين قبيلة وأخرى . وقد أخبرني شيخ المطير أن قبائل المطير وقحطان ، والعتيبة يمنحون قانون (الدخالة) لأي فرد من أبناء قبائلهم إذا إلتجأ بهذا القانون لمدة إثنى عشر شهرا و(الداخل) يستطيع التجول بأمان تام بين قبيلته خلال هذه المدة . وسمعت أن قبيلة عجمان لها قانون مماثل ولكن (الداخل) يجب عليه ألا يبرح المنطقة المجاورة لخيمة أو خيام من منحوه (الدخالة) ، ويجب عليه أن ينصب خيمته قريبا منهم مثل (القصير) . وهذا يعطيه حماية مزدوجة .

ومن ناحية أخرى فان قبائل شمر ، والظفير ، وحرب ، والعوازم تمنح (الدخالة) لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي فقط ثم يضطرون لمساعدة (الداخل) في الهرب الى مكان أو شخص أمين . وتلك القاعدة يتبعها تقريبا كل قبائل ما بين النهرين في العراق . وليس باستطاعة المرأة منح حق (الدخالة) لأي شخص إلا إذا كان زوجها غائبا عن مضارب الخيام .

وأخبرني أحد الشيوخ انه إذا قام مطيري بالأضرار (بالداخل) المحتمي بمطيري آخر ، فان من حق مانح (الدخالة) الإغارة على خيام المعتدي سبع مرات وقتل أكبر عدد من رجال عائلته ونهب قدر ما يستطيع من إبله بدون التعرض لأدنى عقوبة . ولكن لا يمكنه أخذ الإبل بل يجب عليه قتلها خشية اتهامه بالطمع فيها بدلا من الانتقام الذي أغار من أجله .

وفي الأقطار العربية الحديثة حيث حاولت السلطات القضاء على العادات القبلية ، فان ممارسة قانون (الدخالة) مكروه من قبل الحكام ويجده رجال البوليس أنفسهم عقبة أمامهم . وأتذكر حادثة لم يقرها القانون أدت بخادم مخلص ومطيع لابن سعود الى المنفى . فقد اضطر صديقي الشيخ لا في بن معلث ، وهو من قبيلة المطير ، الى الهرب الى العراق لأن رجلا كان بوليس ابن سعود يطاردونه لاذ بخيمته وطلب حق (الدخالة) . وقد قاوم لا في كل محاولات البوليس لتفتيش خيمته بحثا عن الهارب ، ولكن لعلمه أن ذلك لن يغتفر له فقد هرب عبر الحدود مع كل أفراد عائلته المقربين . ولو كان البوليس قد انتظروا الأيام الثلاثة لكان من الممكن القبض على الرجل والإحتفاظ بولاء الشيخ .

وقريبا من قانون (الدخالة) فكرة (الوجه) والتي سنشرحها بصورة أوضح في كلامنا عن الحرب

الآن أوضح كيف تسبب قانون (الدخالة)

في إنقاذ ضابط بريطاني حيث استجار بذلك القانون لدى حسن أغا ، قرب السماوه على نهر الفرات . فقد بدأت ثورة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ في الرميثة عندما اندفعت قبائل تلك المنطقة الى المعتمد السياسي وأطلقت سراح السجناء من السجن . وكان ضابط بريطاني شاب في طريق عودته الى الرميثة عندما أدرك أن هناك شيئا غير عادي ثم سمع طلقات رصاص وطاردته جماعة من الفرسان قادمين من جهة المدينة واستطاع الوصول الى حسن اغا ، وهو فلاح بسيط ذو شأن لدى الإنجليز . وكان حسن أغا غائبا عن الدار ولكن الضابط توسل بنساء المزرعة طالبا الحماية والمأوى . وأدخلنه عندهن وغطينه بعباءة . وعندما وصلت جماعة المطاردين ، طالبوا بتسليم الضابط الانجليزي ، ولكن النساء ـ زوجة حسن وابنتيه ـ صرخن واستغثن من هذا الانتهاك لحرمتهن حتى تراجع الفرسان .

وعندما عاد حسن أغا بعد غروب الشمس علم لدهشته بوجود الضابط الإنجليزي ومدح تصرف نسائه الباسلات . وخرج لتوبيخ الفرسان المهاجمين لإلقائهم الروع في نفوس نسائه ولعب دور الزوج الذي لا يهديء ثائرته شيء . وأخيرا عند حلول الليل ، ملأ قاربه بالنباتات والحشائش وتمكن من تهريب الضابط الانجليزي المتنكر عن طريق النهر الى بر الأمان قرب جسر السماوه حيث قابله هناك حراس بريطانيون . وعندما كنت في العراق تمكنت من الحصول على مكافأة مجزية من الحكومة لحسن أغا عرفانا بصنيعه النبيل .

وقد لوحظ بالطبع مراعاة البدوي لسمعته الشخصية (الشرف) وسمعة نسائه (العرض) . ويضاف الى ذلك (الشيمة) وهو إحساس بالاحتشام والأمانة يذهب الى أبعد من حدود ما يعرف من قوانين الشرف القبلي أو الشخصي . وأروي القصة التالية لأوضح مثالا على ذلك ، وقد أخبرني بها عثمان الراشد من بريدة وهو يشهد على صحتها .

منذ سنين خلت ، في عهد ابن الرشيد ، عاش في بريدة شخص معروف من عائلة الربادي . وكان هذا الرجل في سعة من العيش ، ولكن مرت به أيام ضائقة بسبب كساد التجارة . ومن كل قطعانه بقيت لديه ناقة عجوز متهالكة قرر بيعها ذات يوم . ولهذا طلب من بدوي مسافر من قبيلة شمر أخذها معه ومحاولة بيعها وعند مروره مرة أخرى بديار حائل يستطيع تسليمه ثمنها . ووافق الشمري وأخذ الناقة معه . ولكن يشاء الحظ أن تكون الرحلة الى حائل قاسية لم تتحملها الناقة ومرضت ثم ماتت في الطريق . وقرر الشمري الشريف أن وبر الناقة ذو قيمة وسيحاول الاستفادة منه لصالح صاحبها ولهذا سلخها وملحها ثم رحل الى دياره .

وعندما نشبت الحروب بين الرشيد وابناء آل سعودلعدة سنوات لم يعرف تاجر بريدة شيئا عن ناقته ونسيها تماما. وذات يوم بعد حوالي ثلاثين عاما ، اقبل عليه رجل عجوز وشابان صغيران وهم يقودون اثنين وأربعين بعيرا في أتم الصحة والقوة . وعرف أن الرجل العجوز هو التاجر الشمري الذي مر به منذ ثلاثين عاما مضت . أتى ليعطي تاجر بريدة حقه .

وقال يشرح المسألة (لقد ماتت ناقتك ، ولكني حصلت مقابل وبرها على عدة

ريالات أتجرت بها حتى استطعت الحصول على ناقة جديدة ولدت ناقة أخرى وكل تلك الإبل التي تراها من سلالتها . ولم أجد الفرصة قبل الآن للحضور لدفع مادين لك به وهو تلك الإبل .) !

الغزوات.. والحروب

في الصفحات السابقة تعرضنا لعادات البدو التي تؤثر عليهم في وقت السلم . وهنا سنستعرض القوانين والسلوك المتعلقة بالغارات (الغزوات) والحروب .

الغزوات هي نسمة الحياة بالنسبة للبدوي . فاذا منعت عنه أصبح أكثر الناس كآبة . فالغزوات ليست فقط هي الطريقة الوحيدة التي يأمل أن تتحسن بها أحواله المعيشية ولكنها أيضا المقابل لأنواع الرياضة المختلفة التي تمارس في العالم الغربي . وكذلك فهي ترمز بالنسبة للبدو لكل ما هو رجولي بطولي ورياضي . والمحارب المشهور يكرم قبل كل الرجال ، والصبيان يتوقون لليوم الذي يسمح لهم فيه بمرافقة الكبار في الغزوات ويكسبون صولات وجولات .

وغزوات الصحراء في معظم الأحيان لا تكون لإراقة الدماء وليس هناك في حروب الصحراء ما يسمى (قتال حتى الموت) أو (آخر نفس) دفاعا عن الزوجات والأطفال والمتاع . فقوانين الصحراء تضع المرأة البدوية وأطفالها الصغار في مكانة مقدسة لا تنتهك حرمتها . وإذا حدثت غزوة مفاجئة على مخيم واجتاحته جماعة من فرسان الأعداء فلا خوف على المرأة من كل ما يحدث وقد يقتل الرجال ويهرب الأولاد ولكن خيمة النساء في مأمن من الخطر . وفي مثل تلك الحالات تلوذ النساء بخيامهن يبكين وينحن ولكنهن يعلمن أن المنتصرين لن يمسوا شعرة من رؤوسهن . وقد أخبرني الشيخ حزام السعدون من قبيلة المنتفق ، وهو محارب معروف في الأيام الخوالي ، أنه في عام ١٩١٧ قتل واحدا من رفاقه في إحدى الغزوات لأنه في نشوة النصر نسى نفسه وحاول أخذ سوار من ذراع صبية من الجانب المهزوم . وهناك قوانين محددة تسمح للمغيرين المنتصرين ، بعد تطويق الإبل والغنم وسحبها ، بالاستيلاء على ممتلكات معينة مثل السجاد ودلال القهوة والخيام الإضافية والمواد الغذائية إذا كانت متوفرة بكثرة . ولكن يجب ترك خيمة رئيسية لربة كل عائلة وطعام كاف لمدة محدودة من الزمن . أما مجوهراتها وحليها فهي في مأمن وكذلك هودجها . وقد حدث خرق لتلك القواعد مرة واحدة في نهاية ثورة الإخوان في ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ .

ويعلم البدوي أن نساءه وأطفاله في أمان ولهذا لا يغامر بقتل محقق إذا كانت هزيمته مؤكدة ! ولهذا يترك إبله تنهب وهو يعلم أن دور إنتقامه سيأتي في يوم قريب . وهذا لا يعطي إنطباعا سيئا عن شجاعة العربي . فهو رجل شجاع مقدام ، ورغم أنه لا يتظاهر بمقاومة قوى

أعظم منه ، ولكنه سيحارب ببراعة إذا رأى أن كفة الحرب متساوية ومما يعطيه حماسا أكبر وقوة أشد صيحات تشجيع نسائه . وفي حالة قبائل العجمان والعوازم كانت النساء يجلبن الذخيرة والماء للمحاربين واشتهرت النساء بإظهار لا مبالاة رائعة بالنسبة للخطر وطلقات النار في تلك الأحوال . ولكن عندما يدرك البدوي أن الهزيمة محققة ففي تلك الحالة فقط يرى أن الحرص والحذر هما الجانب الأسلم من الشجاعة .

وتختلف الحرب عن الغزو في أن الحروب يمكن أن تقوم في وقت السلم وعندما تكون الحرب وشيكة الوقوع بين قبيلتين فيجب تحريك المسببات والعمل ببعض القواعد . أولا إظهار العداء ثم توجيه إنذار من القبيلة التي تنذر بالحرب الى خصومها إما برسالة خطية أو شفوية . ومن الجدير بالذكر أنه ليس من الشهامة العربية شن هجوم مفاجيء على حين غرة .

عندما توجه القبيلة إنذارها إلى الخصوم تضيف له : (فلان بن فلان شجاع الحرب سيحاربكم) . ويقوم شيخ القبيلة التي يوجه إليه الإنذار باستدعاء رجاله ومقاتليه وينبئهم بإعلان الحرب . ثم يملأ فنجانا من القهوة ويصرخ (هذا الفنجان يرمز لفلان وفلان من مقاتلي الخصوم ، من منكم سيشربه ؟ من سيصرعه بضربة واحدة ؟)ويجيب أحد الشجعان (أنا جاهز) فيقدم له الفنجان ويشربه . ومثل هذا يأخذ مجراه عند الخصوم أيضا . وهكذا تتواجه القبيلتان المتقاتلتان ويخرج فارسان من كلا الجهتين ويدور كل منهما نصف دورة في ساحة القتال ليستعرض فرسه وفروسيته ثم يبدأ بمبارزةخصمه من القبيلة الأخرى قبل بدء المعركة الكبيرة .

وأهم هدف تحققه القبائل من الحروب هو الاستيلاء على اكبر عدد ممكن من الجمال وإلحاق الضرر بالشباب من الأعداء . وقلما تحدث الغارات في الشتاء لثلاثة أسباب رئيسية ، أولا : كثرة المراعي في كل مكان وارتكاز القبائل القوية حيث ترعى جمالها ومواشيها يحول دون نجاح أى غارة فجائية ، ثانيا : لا يعود مطلب الماء من الاستراتيجيات المهمة حيث يتحكم في تحركات القبيلة نظرا لوفرته في كل مكان ، ثالثا : تستطيع أى قبيلة صغيرة كانت أو غير قوية أن تتفادى الأعداء بالتنقل المستمر وإخلاء المناطق الخطرة .

أما في الصيف فجميع البدو معرضون للخطر إذ يضطرون للتخييم حول الآبار بينما ترعى جمالهم على مسافات طويلة منهم . ويضطر البدو إلى ترك ماشيتهم وقطعانهم في عهدة دوريات لا تمنح الحماية الكافية ، فلو لم تتمكن الدورية من صد الهجوم في أوله يكون المعتدون قد جمعوا الماشية والرعيان وهربوا بها قبل أن تصل أى نجدة من المخيم .

ويعتمد البدو على عنصر المفاجأة في نجاح الغارة . فإذا شعر المغيرون بأن تحركاتهم مكشوفة تراجعوا بدون أى تردد . وللحفاظ على عنصر المفاجأة فإن أى بدوي يوجد في طريق الغارة يجبر على السير في صفوفها لئلا ينتشر الخبر . كذلك كثيرا ما يعمد القادة إلى تغيير خط إتجاههم بعد يوم من السير إلى إتجاه معاكس تماما . وتعتبر أنسب الأوقات للإغارة عند الفجر أو أثناء العواصف الرملية .

والغارات التي تشن من على بعد مسافات طويله تستخدم الجمال فقط

ويوجه المغيرون ضربة من على بعد مائتين وخمسين ميلا أو أكثر بعد سير يوم وليلة . أما الغارات التي تشن من مسافات قصيرة ، حوالي المائة ميل فتستخدم فيها الجمال والخيول على قدم المساواة . فارس خلف كل راكب جمل ، وتقاد الخيول لمسافة مرمى حجر من المكان المقصود ثم يترجل الفرسان عن الجمال ويقومون بتحميل ظهور الخيول بما يسلبونه ويقوم راكبو الجمال بدور القوة الداعمة التي تعمل كغطاء للفرسان ريثما يجرون جمال أعدائهم وينسحبون . ويحمل الماء للرجال والخيل على ظهور جمال مخصصة في كل أنواع الهجوم ، ولا تنال الجمال أى شيء إلا بعد الإنتهاء من الغزو .

ويشن الهجوم المنظم على المدن أو المخيمات المحصنة مشيا على الأقدام على شكل طوابير متتالية ويظل الفرسان وراكبو الجمال كاحتياطي . يتبع نفس الطريقة ضد العدو الذي إذا ما هوجم إتبع الخدعة الحربية المعهودة وهي الجلاء عن الآبار التي لابد وان يستريح حولها الغزاة .

لكل أمير عربي وقبيلة عربية صرخة حرب خاصة وللبعض عدة صرخات . وتطلق هذه الصرخات عند إحتدام القتال وخاصة اثناء هجوم الفرسان حيث تثير الحماس والاستبسال لديهم . وتهدف صرخة الحرب الى اثارة الرعب في صفوف العدو ، كما أنها تمكن المقاتل من تمييز الصديق من العدو في العراك الذي يعقب الهجوم حيث تكون الوجوه مغطاة فيما عدا العيون كما انه لا يوجد زي محدد يفرق بين الجانبين .

وفيما يلي نماذج لصرخات الحروب الخاصة ببعض القبائل الشهيرة في الجزيرة العربية :

آل سعود : (العوجا) ، أنا أخو نورا . أنا ابن مجرن .

الصباح : أنا ولد سالم ، أنا أخو مريم .

شمر : سناعيس .

عجمان : مفراس الحديد . وأنا ابن العجمان (صفار) . صافي الموت ، أنا أخو من طاع الله ..

(مطير) علوه : علوه ، أهل الرطاة

القبلان : خيال الصبحا ، القبلي .

الموهه : أولاد المويهي ، البطحا ، أنا ابن مدواش .

واصل : أولاد واصل ، آل رحمان ، وأنا ابن واصل .

بني عبدالله : أولاد عبدالله .

صعران : العشوى ، أنا ابن علي .

الصهبا : خيال صبحا مصهبي .

العوازم : عطوى ، أولاد عطوة ، وعادة تختصر بـ(أولاد عطا) .

الرشايدة : الدعيجي ، مر الدلالة الدعيجي ، خيال الصبحا الدعيجي .

حرب : أنا ولد علي .

عتيبة : أهل العطية (آل عطية) وأنا ابن روق .

سبيع : العرفا ، السبيع .

ظفير : الجروا ، سويطي ، صبحاتما .

معظم هذه الصرخات تثير حماس المقاتلين بأسم جد القبيلة المشترك مثل : (أنا ابن فلان وفلان) أو (أبناء فلان وفلان) . وتشتمل بعض الصرخات على إشارات محددة مثل : (الصبحا) عند القبلان فخذ مطير وهو اسم تل في نجد يقصده الناس كمنتجع . وفي صرخات الموهه : (البطحا) وكان اسم جمل

الدويش الخاص ، و (مدواش) اسم جد شهير ، و (العشوى) إحدى صرخات الحرب عند الصعران وهو اسم ناقة .

وإذا كان لابد من الاستسلام فان علامة الاستسلام المعروفة برفع اليدين إلى أعلى يوازيها عند البدوي إلقاء البندقية ووضع الابهامين داخل الفم ومد بقية أصابع اليدين الى الخارج باتجاه الخصم وهو ما يفعله الهارب اذا ما أيقن ان مطارديه على وشك الامساك به وقتله . وبهذا العمل يبين ان لا سبيل الى الفرار وأن الموت حليفه ، ولكنه مع ذلك يعتبر نفسه تحت رحمة الله ورحمة عدوه ، وغالبا ما تكون النجاة بنسبة تسع حالات من عشر .

ويمكن ان ينجو من الموت الرجل من الجهة الخاسرة اذا تعرف الى صديق قديم في صفوف الاعداء وطلب الحماية منه بقوله (بوجهك) . وفي حالة استسلامه لعدوه يناشده بالقول (أنا دخيلك) أو (انا تحت رحمتك) . فاذا كان الشفيع المنشود صاحب نفوذ قوى بين رفاقه أجاب (لقد منحتك حمايتي . يدي فوق ذراعيك) ، وفي ظل هذه الظروف ينجو المستسلم من الموت بكل تأكيد ، ويعاقب كل من يؤذيه من القبيلة لانه بذلك يسود وجه الحامي الذي أعطى وجهه علامة العفو . أما اذا لم يكن الشفيع ذا أهمية تؤهله منح الحماية فإنه ينادي على المتوسل وينصحه باللجوء الى شخص آخر أكثر منه أهمية ونفوذا ويشير اليه بمكان وإسم ذلك الشخص .

وتتماثل أحكام الاستسلام مع أحكام الدخاله (الإستجارة) ، فالذي يستسلم يكون وضعه كوضع المتوسل ، ولا يجرؤ العربي على انكار هذه القضية . والفرق الوحيد بين الوضعين هو أن العدو عندما يطلب العفو في الحرب يمكن أن يستجاب رجاؤه أو لا يستجاب . ويمكن ان يضيف الحامي بعض الشروط (أضمن حياتك وبندقيتك ولكن لا أضمن فرسك) أو (أضمن حياتك فقط ولا أضمن سلاحك أو فرسك) أو (حياتك رهن لقرار الشيخ) . وعموما اذا منح (الوجه) وجبت سلامة الاسير ، وان خرق أي رجل هذا العرف يخضع لغرامة كبيرة من المال والجمال وتظل فعلته هذه وصمة عار في جبينه أمام قبيلته التي لن تسامحه على ما اقترف .

ويعتبر فيصل الدويش الكبير ، شيخ قبيلة مطير من أبرز شيوخ الجزيرة العربية الذين عرفتهم.

وربما كان أعظم قائد وأبرع استراتيجي بدوي انجبته الجزيرة العربية بعد ابن سعود خلال القرن . كانت أول مرة لقيته فيها في أغسطس ١٩٢٩ في الصبيحية خلال حركة تمرد الاخوان.

كان فيصل الدويش عريض المنكبين ، قصير القامة رأسه وأنفه كبيران بشكل ملحوظ . وكان صارما وصموتا ، يندر أن يتحدث مع من حوله ، ومع هذا فقد كانت قبيلته (الدوشان) وقبيلة مطير بكل فروعها وأفخاذها تقدسه وتعتبره بطلا . وكان اذا مشي بدا ظهره محدودبا وعرج نتيجة جرح قديم في ساقه ، عبر الى الكويت مع جميع القوى المتمردة من مطير والعجمان وخيموا حول آبار الصبيحية ، كانت خيامهم تحصي بثلاثة آلاف خيمة وجمالهم بمئة الف ، وكان الجند يتضورون جوعا بعد أن نفدت مؤونتهم فتعشم الدويش شراء الطعام لهم من ميناء الكويت ، لقد كان منظرهم مشهداً مؤثراً لن أنساه مدى الحياة .

أبلغت الحكومة البريطانية بتدفق تلك القوات الهائلة الى أراضي الكويت وطلبت حكومتي مني إنذار فيصل بالانسحاب خارج الحدود خلال ثمان واربعين ساعة والا تعرضت قواته للقصف من قبل سلاح الطيران الملكي . طلبت من فيصل مقابلتي في أراضي ملح على بعد خمسة عشر ميلا جنوب مدينة الكويت ، واتجهت الى ذلك المكان دون الانصياع لنصيحة شيخ الكويت الذي كان يخشى الخيانة ، ولكنه في اللحظة الاخيرة تبعني ومعه أربعة من خدمه قائلا بأنه شعر بواجب مشاركتي قدري اذا مالحقني الاذى .

وصل فيصل إلى الملتقى يرافقه القادة الرئيسيون لحركة الاخوان . وبعد أن أبلغته بما يجب أضفت بأنني قد رجوت الحكومة البريطانية أن ترفع يدها لمدة يومين رافة بالنساء والأطفال الذين يبلغ عددهم عدة آلاف ورجوته ان يعطيني وعدا بالانسحاب خارج الحدود خلال الفترة المحددة . وتكلم لمدة ساعة كاملة مؤكدا ان لا خلاف بينه وبين البريطانيين وانه وقبيلته موالون لشيخ الكويت منذ القدم ويريدون العودة الى حكمه . وقال بأنه ورجاله يعانون من نقص في الغذاء والمؤن .

كنت متشددا معه بالرغم من تأثري العميق ، وأخيرا أقنعته باعطائي الوعد بالانسحاب ، وكانت الشمس قد بدأت تحتجب خلف تلال المناقيش فقال فيصل بان وقت الصلاة قد حان وأخذ ينادي بنفسه على رجاله للصلاة . وضع كل رجل بندقيته أمامه على الارض حسب الطريقة الاخوانية الصحيحة وبدأت الصلاة تحت إمامته ، وما أن انتهت الصلاة وما زال فيصل العظيم راكعا على ركبتيه حتى استدار بوجهه نحو قادته وجنرالاته وأعطى السلام الذي تختتم به الصلاة ، بعد ذلك استدار نحوي وهو ما زال راكعا وقال (أعدك بشرفي أن أفعل ما طلبته مني ، إذهب بسلامة الله) .

التزم فيصل الدويش بوعده ولم أره مرة اخرى الا بعد خمسة أشهر عند استسلامه في الجهراء في يناير عام ١٩٣٠ ، يومها حاولت شق طريقي خلال قذائف الطائرات التي كانت تحاصر مخيمه ، وناشدته لمدة ساعتين الاستسلام لسلاح الطيران وعدم محاولة التقدم كما كان ينوي ، لقد كان وضع الدويش سيئا إذ أن دخوله لأراضي الكويت مرة ثانية جعله عرضة لحصار ومطاردة من قوات سلاح الطيران الأرضية والجوية ولما كانت فرصة النجاة ضئيلة فقد انصاع لنصيحتي وتقدم نحو مخيم ضابط العمليات العسكرية البريطانية وسلم سيفه .

قبل أن يتم نقل فيصل الدويش كسجين الى البصرة عهد الى بزوجته واخواته الثلاث وطفلين صغيرين وسبع وعشرين من أقربائه النساء ، وكانت وصيته الوحيدة (أبو سعود : اترك حريمي في ظل رعايتك وعهدتك الخاصة) . وقد تحملت مسئولية هاته النساء العربيات شريفات النسب وأطفالهن لمدة اكثر من شهر الى أن أرسل ابن سعود شاحنات وخدماً لنقلهن الى عاصمته . وكان لاهتمامي وزوجتي بهؤلاء السيدات النبيلات تقدير كبير لدي الملك الذي دفعته الشهامة العربية لحماية النساء . وقد شكرنا برسالة خطية حارة .

توفي فيصل الدويش في الأسر في الرياض عام ١٩٣٢ . وكان بدون أدنى شك قائدا عظيما حمل أفكاراً نبيلة

وعظيمة لمستقبل الجزيرة العربية .

عرفت كذلك الابن الأكبر لفيصل الدويش (عبدالعزيز) وكان شابا رقيقا منتصب القامة ذا شعر فاتح ، وكان يعرف باسم (عزيّز) . كان والده شغوفا به وقد قيل ان حركة الاخوان قد بدأت بالانحسار عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ يوم مقتل الشاب عزيز . وحسب قول مطير فإن الاب عندما سمع نبأ وفاة ابنه اصبح كئيبا نكد المزاج قليل الأكل يعتريه التردد والحيرة .

وبالرغم من وفاة عزيز وهو ما زال في الخامسة والعشرين الا انه أبلى بلاء حسنا بالاغارة مع والده ، وقصة إغارته الملحمية الاخيرة أخبرني بها كل من ابن عشوان والشيخ مطلق السور وفيصل بن شبلان الذين كانوا يرافقونه .

ففي منتصف شهر أغسطس من عام ١٩٢٩ قبل أن يحاول الاخوان المتمردون العبور الى أراضي الكويت قرر فيصل الدويش ان يبعث ابنه في غارة طويلة الى أرض قبائل حرب وشمر وجنوب مناطق عنزة بهدف إقناع المتشككين بان حركة تمرد الاخوان حركة جادة وقوية وان على اولئك المتفرجين ان ينضموا الى (الصفوة المختارة) ، ذهب عزيز بقوة منتقاة مكونة من ستمائة وخمسين راكب جمل مختار هم زبدة شباب مطير والعجمان ، ورحل عزيز جهة الشمال الغربي يرافقه عدد من المستشارين ذوى الخبرة الكبيرة للتأكد من أنه لن يجعل الحماس يطغى على الحيطة .

بدأت الفرقة المغيرة سيرها من (عرق) في منطقة الكويت المحايدة فاجتازت حفر الباطن الى اليمين ثم مرت عبر منطقة الباشوك وتركت آبار لينا الى اليمين وآبار الطربية الى الشمال ووصلت الى هازل (شمال حايل) ومن هناك اتجهوا شمالا الى آبار الليفية واستولوا على قطعان كبيرة من جمال شمر والعمارات وقافلة سعودية تقدر قيمتها بعشرة آلاف ريال ثم بدأوا بالعودة الى موطنهم . وفي طريق العودة مروا بـ (لوقا) على اليمين و (جميمه) على اليسار و(لينا) على اليمين . وكانوا ينوون التوقف عند آبار ام الرثامة جنوبي غربي منطقة العراق المحايدة لسقي جمالهم وما ان اقتربوا من لينا حتى سمعوا أن ابن مساعد قد قطع الطريق عليهم واحتل الآبار التي كانوا ينشدونها .

كان وقع هذا النبأ أليما وخاصة في مثل شهر أغسطس حيث القيظ الشديد والجمال عطشى لم تذق الماء لأربعة أيام مضت ، بدأت بعدها تهوى وتنفق من شدة الانهاك وبناء عليه عقد مجلس شوري أشار فيه فيصل بن شبلان الكبير بتغيير وجهة السير فورا ، للابقاء على حياتهم ، الى الشمال الشرقي باتجاه (الرقعي) في الزاوية الجنوبية الغربية من الكويت ، ومن هناك يحاولون الوصول الى المنطقة المحايدة جنوبي الكويت .

ايد ابن عشوان وعدد كبير آخر مشورة ابن شبلان الا ان عزيز قال : (إن الله في صف الاخوان ومن اصطفاهم الله ومن العار تفادي القتال) . ناشده الكبار العدول عن رأيه ولكن دون جدوى . وأخيرا جاء الكشافة بأنباء تقول بأن آبار أم الرثامة تسيطر عليها قوة كبيرة توازي عدد المغيرين . وهنا يتقرر من المقاتل المقدام ! فيصل بن شبلان صرح بانه ينوي الاتجاه برجاله نحو الشمال الشرقي على أية حال ودعا جميع الرجال الحكماء ان يتبعوه ..

رفض عزيز ذو الطبع الحاد اتباع ابن

شبلان . وهكذا رحل الاخير مع ابن عشوان وغيرهم يرافقهم مئة وخمسون رجلا ومئات من الجمال . تقدم عزيز على رأس خمسمائةرجل فقط بالرغم من أن جماله كانت منهكة وتحتضر فوصل الى منطقة الآبار في منتصف النهار وكانت هذه الآبار تحت سيطرة ما يزيد على الف وخمسمائة بدوي . كان الوضع بائسا والحرارة شديدة والجمال بحاجة الى ماء وجميع القرب الجلديةالاحتياطية قد نفذ منها الماء منذ وقت طويل ، ولم تذق قوات عزيز الماء خلال الثماني الساعات الماضية .

وعلى مرأي من العدو دعا عزيز رجاله الى التوقف وإقامة الصلاة . فركعت القوات الظمأى لأداء الفريضة وصرخ قائدهم (السنا من الاخوان ، ومن اصطفاهم الله ؟ سوف نحصل على الماء والله سيعين عبيده ..) . وبعد نصف ساعة ودع عزيز مهرته الغالية وتركها في عهدة أحد خدمه وطلب منه ان يحميها ما أمكنه ذلك ، وأمر رجاله بالهجوم بكل ما أوتوه من شجاعة واقدام ، وهكذابدأ الهجوم المريع لخمسمائة من الرجال الذين أصابهم الجنون من شدةالعطش .

كانت قوات الاخوان الشرسة على وشك كسب المعركة الا ان قوات ابن مساعد بدأت في التزايد باستدعاء المجموعات من الاحتياطي . وجاءت النهاية مع غروب الشمس القاسية التي لا ترحم ، واقتيد عزيز مع خمسة من خدمه الخاصين بعد أن خسر ما يزيد على ثلاثة ارباع عدد رجاله الذين لم ترهم العين احياء بعد ذلك وانما وجدت جثثهم وجثث جمالهم جافة في (الهجيرة) في الصحراء بعد شهرين من المعركة ، فقد قتلهم الظمأ . كانت النهاية البطولية لعزيز قد ملأت عالم البدو بالاعجاب .

استطاع عدد قليل من قوات عزيز الفرار الى جانب أولئك الذين رحلوا قبل بدء الهجوم . الشيخ مطلق السور ومجموعة من الرجال توقفوا على بعد خمسة أميال من مؤخرة الفرقة المقاتلة لحراسة الجمال المسلوبة ثم هربوا بها الى الجهراء بعد غروب الشمس . وهربت مجموعة اخرى عندما بدأ الظلام يخيم على ساحة القتال واختبأت بين كثبان الرمال حتى اليوم التالي . ولما كانوا على وشك الجنون من شدة الظمأ فقد عادوا عند الفجر طلبا للماء ولكنهم وجدوا قوة مؤخرة من شمر حول الآبار (فأعطتهم وجها) او (منحتم العفو) ولكنها جردتهم من أسلحتهم ، وبعد يوم تركت قوة المؤخرة الآبار لتنضم الى ابن مساعد كما انضم الى الرجال العزل هارب آخر اسمه شافي بحوزته بندقية وذخيرة ، ولما علم ابن مساعد بوجود أربعين من الرجال العزل عند آبار أم الرثامة بعث بستة من رجاله لقتلهم .وصل هؤلاء الرجال الى الآبار عند منتصف النهار فالتقوا بشافي الذي خبأ بندقيته وأفسح المجال للرجال الستة بالاقتراب ، وما أن بدأوا باطلاق الرصاص على الرجال العزل وقتلوا رجلين منهم حتى فر شافي فجأة من خلفهم مع بقية الرجال طارحا على الارض رجلين وجملا واستولى على جمل آخر محملا بأربعة قرب من الماء . وقد مكنت هذه القرب والجمل الثمانيه وثلاثين جريحا الذين بقوا على قيد الحياة من الوصول بسلام .

وأخيرا وصل خادم عزيز ومهرته الى الكويت عبر الجهراء في رحلة بطولية رائعة ، وبالرغم من ان المهرة تناولت شربة ماء واحدة فقط صباح يوم المعركة

الا انها قطعت مسافة مائة وثمانين ميلا من الارض الجـرداء المكشوفـة الى الجهراء خلال ثلاثة ايام بدون ماء . وعندما يكون الوقت في شهر اغسطس حيث تصـل درجة الحـرارة شمس الصحراء الى ١٧٠ درجة فرنهيت خلال النهار فهذه المهرة الفذة تصنف كأحسن فرس يقتنيه عربي ، بعد أسبوع من المعركة تم نقل هذه المهرة الى الكويت وكان من حظي ان توضع في اسطبل بالقرب من بيتي حيث قمت باطعامها ورعايتها لمدة ثلاثة أشهر .

لقد كانت حيوانا جميلا ذات فم وخياشيم صغيرة ، عيناها مستديرتان وكبيرتان تنم عن الحساسية والذكاء ، جبهتها عريضة ولونها كستنائي داكن وعمرها حوالي ثلاثة عشر عاما ، وعندما أحضرت الى ذلك الاسطبل كانت نحيلة عظامها بارزة ومصابة بجرح في وسط ظهرها ، وقد قمت وزوجتي برعايتها الى ان تحسنت صحتها ، فقد كنا نطعمها من أعشاب الفصفص والتمر المهـروس والحليب ، بعد ذلك بفترة قصيرة بيعت سرا حيث طالب بها كل من ابن مساعد وقبائل مطير والظفير كحق مكتسب من خلال انتصارهم في المعركة . وفي النهاية أخذها مالكها الجديد الى العراق وقد شاهدتها عدة مرات هناك خلال السنتين التاليتين .

يتبـع